جمهورية العراق
ديوان الوقف السني
مركز البحوث والدراسات الإسلاميه

سلسلة الموسوعة الإسلامية
(٣٨)

العلم والعلماء في القرآن الكريم

تأليف
ا.د. عبد الغفور محمد طه القيسي

١٤٢٩هـ الطبعة الاولى ٢٠٠٨م

جميع الآراء في هذا المطبوع تمثل رأي كاتبها
حقوق الطبع محفوظة للمركز

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾

آل عمران : ١٨

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

فاطر : ٢٨

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

المجادلة : ١١

الاهداء

إلى معلم الانسانية سيدنا محمد - ﷺ -

وإلى روح والدي الذي أخذ بيدي إلى مقاعد العلم

وحلقاته وشجعني لاكتساب علوم الشريعة الغرّاء وإلى

كل من علمني وأرشدني

أقدم هذا الجهد العلمي وفاءً واعترافاً بالجميل .

عبد الغفور

المقدمة

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على معلم الإنسانية سيدنا محمد .

وبعد :

فإن القرآن الكريم دستور هذه الأمة ومنهجها الكامل دعا منذ بداية نزوله إلى العلم بقوله تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(١) .

فقد تميز القرآن من ضمن ما تميز به بأنه دعوة للعلم .

وتكرر لفظ العلم كثيراً في القرآن ليشمل العلوم كلها ، إذ فيه من آيات العلوم الكونية والطبيعية النفسية التي يظهر بها آثار جمال الله ، وعظيم حكمه ما يربو على خمسين وسبعمائة آية ، بل ان علوم الكائنات في معظم سوره .

فالعلم في القرآن الكريم يشمل كل أنواع المعرفة ومجالاته ، تتصل في كل ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم .

فهو يدعو علماء المسلمين إلى دراسة العلوم كافة ؛ لأن الحقائق التي يكشفها ما هي إلا نوع من كلمات الله وسر من أسرار إعجاز قرآنه التي لا تنفد حتى قيام الساعة كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ

---

(١) سورة العلق : الآيات ١ ــ ٥ .

أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾[1] .

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾[2] .

فدراسة هذه العلوم تفتح لمعاني القرآن بصائر المسلمين وتضم إلى تربية أجسامهم تربية عقولهم ، فإن لم يفعل علماء المسلمين ذلك فسوف تزداد تخلفاً عن الأمم المتقدمة التي تحرص على استعمارنا بل إفنائنا من الوجود ، وقد انتبه إلى ذلك علمائنا فقال : (أيقظوا العقول أيها العلماء نحن أمة عربية ، فلندرس القرآن الذي ورثناه درساً يناسب الجيل المقبل ، ولنأخذ بأيدي أبناءنا إلى مقام الكمال)[3] .

فالقرآن سراج العقل ونور الحكمة وينابيع العلم والمعرفة ، لهذا وقع اختياري على موضوع (العلم والعلماء في القرآن الكريم) ، فقمت بدراسة شاملة لآيات العلم والعلماء ، وكانت محاولتي هذه إظهاراً لقيمة العلم من خلال آيات القرآن التي توزعت على مساحة كبيرة منه ، وقد أملى عليّ هذا البحث أن اتبع في كتابته المنهج العلمي في تتبع النصوص والاستدلال بها ، واجتهدت أن أعيش مع القرآن في البحث ، إلا أني خرجت أحياناً في بعض المباحث إلى الآثار ، وبعض الأقوال المشهورة للعلماء توضيحاً وتتميماً للفائدة ، وعليه فقد اشتملت خطة البحث على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة ،

---

(١) سورة لقمان : الآية ٢٧ .

(٢) سورة الكهف : الآية ١٠٩ .

(٣) لجواهر في تفسير القرآن الكريم ، لطنطاوي جوهري : ٢ /٢٠٣ .

جاءت على الوجه الآتي :

الفصل الأول : **مفهوم العلم ومجالاته في القرآن الكريم**

وقد تضمن مبحثين

المبحث الأول : درست فيه مفهوم العلم في القرآن الكريم

استعرضت فيه الآيات التي تكلمت عن العلم ، وبينت موقف القرآن من العلم ومفهومه فيه ، وذكرت في نهاية المبحث فضيلة العلم ومكانته مسترشداً بالنصوص القرآنية من حيث هي شواهد على فضيلته .

المبحث الثاني : مجالات العلم في القرآن الكريم والتي هي :

العقل ، العلم الاستقرائي ، العلم الرباني .

بينت أوجه اهتمام القرآن بالعقل ، ثم تكلمت عن الحقائق العلمية التي يتم التوصل إليها عن طريق اكتشاف قوانين الكون ، ثم أوضحت العلم الرباني بعد أن قسمته إلى ثلاثة أقسام وهي : (الإلهام ، العلم اللدني الفراسة). وأوضحت كل قسم منها .

أما **الفصل الثاني** ، **فهو منهج الوصول إلى الحقائق العلمية في القرآن الكريم وقد تضمن مبحثين :**

المبحث الأول : درست فيه طريقة القرآن في الوصول إلى الحقيقة العلمية .

المبحث الثاني : بينت فيه طريقة العلم في الوصول إلى الحقيقة العلمية ، وذكرت في نهاية الفصل أوجه الشبه بين الطريقتين .

أما **الفصل الثالث فهو**: العلماء في القرآن الكريم ، وقد تضمن ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : فضيلة تعلم العلم ووجوب طلبه .

المبحث الثاني : صفات العلماء ، فقد تكلمت فيه عن صفات العلماء المميزة لهم من خلال آيات القرآن الكريم .

المبحث الثالث : وجوب الاسترشاد بالعلماء ، بحثت فيه وجوب الرجوع إليهم والاسترشاد بهم مستدلاً على ذلك بالآيات القرآنية التي أوجبت الاسترشاد بهم .

وأما الفصل الرابع : فهو منهج القرآن العلمي وأثره في الحضارة وقد تضمن ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : خصائص الحضارة الإسلامية ، درست فيه أهم الخصائص التي اختصت بها هذه الحضارة .

المبحث الثاني : واقع الحضارة الإسلامية بينت فيه واقع الحضارة قبل نزول القرآن للوصول إلى معرفة ما أحدثته حضارة القرآن من تغيير في الحضارة .

المبحث الثالث : أثر الحضارة القرآنية على الحضارة الحديثة أثبت فيه أن للحضارة الإسلامية أثراً في مجالات العلوم كافة بفضل منهجها العلمي .

هذا وتضمنت الخاتمة عرضاً موجزاً لما توصلت إليه من نتائج في أثناء البحث .

أما المصادر التي اعتمدت عليها فقد تنوعت بتنوع فصول الدراسة ومجالاتها فشملت : كتب التفسير ، وكتب الحديث ، والدراسات القرآنية الحديثة ، والمصادر التاريخية والفكرية والفقهية والأصولية مما له علاقة

بالموضوع ، وقد ذكرتها في نهاية الرسالة بأوصافها الكاملة .

والذي أرجوه أن يكون هذا الجهد المتواضع مساهمة مني في خدمة القرآن الكريم ، وإظهاراً لجانب من أهم جوانبه الواسعة ، فإن أصبت فبتوفيق الله وكرمه ومنِّه وفضله ، وإن أخطأت فمن نفسي واستغفر الله في كل حال ، وأساله تعالى أن ينفعني بنا كتبت وينفع به .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين .

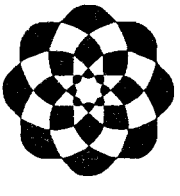

الفصل الاول

ويشمل:

المبحث الاول: مفهوم العلم في القرآن الكريم

اولا. موقف القرآن من العلم ومفهومه عنه

ثانيا. فضيلة العلم ومكانته والشواهد على فضيلته

المبحث الثاني: مجالات العلم في القرآن الكريم

اولا. العقل: اوجه اهتمام القرآن بالعقل

ثانيا. العلم الاستقرائي: اكتشاف قوانين الكون "الحقائق العلمية"

ثالثا. العلم الرباني: الإلهام ــ العلم اللدني ــ الفراسة

المبحث الأول

مفهوم العلم في القرآن الكريم

إن كلمة العلوم وردت في القرآن الكريم كمصطلح على الدين نفسه الذي علمه الله أنبياءه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على النواميس التي يسير بها الله ملكوته العظيم على الحقائق الكبرى الموجودة عند الله سبحانه وتعالى في أم الكتاب ، وكإشارة إلى القيم الدينية التي نزلت من السماء ، ومن ثم يغدو (العلم) و (الدين) سواء في لغة القرآن ، وهاهي كلمات الله سبحانه وتعالى تعلمنا هذه الحقيقة وتبصرنا بواقع العلم والدين الفسيحة المتداخلة كما أراد الله لها أن تكون[1] .

وفيما يأتي نستعرض بعض كلمات الله :

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2] .

﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[3].

﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾[4].

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾[5].

---

(١) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم ، د . عماد الدين خليل : ٨٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٤٥ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٤٧ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ٧ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ١٨ .

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾[1] .

﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾[2] .

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾[3] .

﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾[4] .

﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[5] .

﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾[6] .

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾[7] .

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾[8] .

﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾[9] .

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾[10] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٦١ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٦٦ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٥٧ .

(٤) ورة النساء : الآية ١٦٢ .

(٥) سورة الأنعام : الآية ١٤٣ .

(٦) ورة الأنعام : الآية ١٤٨ .

(٧) سورة الأعراف : الآية ٧ .

(٨) سورة الأعراف : الآية ٥٢ .

(٩) سورة يونس : الآية ٩٣ .

(١٠) سورة هود : الآية ١٤ .

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[1] .

﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[2].

﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[3] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾[4] .

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾[5] .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[6] .

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ﴾[7].

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ ﴾[8] .

﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾[9] .

﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾[10] .

---

(١) سورة يوسف : الآية ٧٦ .

(٢) سورة النحل : الآية ٢٧ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٨٥ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ١٠٧ .

(٥) سورة مريم : الآية ٤٣ .

(٦) سورة الحج : الآية ٣ .

(٧) سورة الحج : الآية ٥٤ .

(٨) سورة النمل : الآية ٤٠ .

(٩) سورة النمل : الآية ٤٢ .

(١٠) سورة العنكبوت : الآية ٤٩ .

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾[1].

﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾[2] .

﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾[3] .

﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾[4] .

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[5] .

﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[6] .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[7] .

﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾[8]

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[9] .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾[10] .

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾[11] .

---

(١) سورة سبأ : الآية ٦ .

(٢) سورة الأحقاف : الآية ٤ .

(٣) سورة الأحقاف : الآية ٢٣ .

(٤) سورة النجم : الآية ٣٠ .

(٥) سورة المجادلة : الآية ١١ .

(٦) سورة الأنعام : الآية ٨٠ .

(٧) سورة يوسف : الآية ٢٢ .

(٨) سورة الكهف : الآية ٦٥ .

(٩) سورة طه : الآية ١١٤ .

(١٠) سورة الطلاق : الآية ١٢ .

(١١) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾[١] .

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى ﴾[٢] .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ ﴾[٣] .

﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[٤] .

﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾[٥] .

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَ الْعَالِمُونَ ﴾[٦] .

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[٧] .

ولا يسع المجال هنا لذكر كل الآيات التي وردت في هذا المجال .

ومن ثم فلا يتصور أحد أن القرآن ما جاء إلا لكي يؤكد موقفه من العمل الحضاري على الجوانب الروحية والأخلاقية فحسب .

فقد وردت آيات عديدة تدفع المؤمن لبذل الجهود من أجل التنقيب عن سنن الكون ونواميسه ، وتسخير القوانين الطبيعية لتحقيق التقدم الحضاري على المستوى العادي ، فقد ربط القرآن بين الروح والمادة ، وانعكس هذا التوحيد أو الربط بوضوح عبر مسيرة الحضارة الإسلامية التي قطعت القرون الطويلة وهي تحتفظ بتوازنها المبدع بين الطرفين ، ونفذت كثيراً من

---

(١) سورة يونس : الآية ٣٩ .

(٢) سورة طه : الآية ٥٢.

(٣) سورة البقرة : الآية ٣١ .

(٤) سورة العلق : الآيتان ٤ ــ ٥ .

(٥) سورة النساء : الآية ١١٣ .

(٦) سورة العنكبوت : الآية ٤٣ .

(٧) سورة فاطر : الآية ٢٨ .

المعطيات الحضارية التي لم تهمل جانباً من الجوانب ، فقد حققت هذه الحضارة التي استمدت منهجها العلمي من القرآن الكريم في مجالات الطبيعة والفلك والطب والصناعة وغيرها ، لا يقل في المستوى عما أنجزوه في ساحات العلوم والدراسات الإسلامية .

إن القرآن الكريم يوجه أنظارنا إلى أشد الأمور مادية وثقلاً .

الطعام ، النطفة الأولى ، الأرض ، السماء ، الجبال ، دنيا النبات والحيوان ، ويدعونا لأن نسير بحثا عن سنن هذه العوالم وإدراكاً لأبعاد خلقها، المعجزة التي لا تتحقق إلا بإرادة كلية نافذة لا يعجزها شيء .

إن القرآن يدعو إلى (حضارة) (تنمو) على المستويات الروحية والأخلاقية والطبيعية كافة ، وهو يخص المقاطع والآيات الطوال للمسألة الحضارية في مستواها الطبيعي المادي ، ولكن شرط أن تضبطها القيم والمقاييس الدينية الآتية من عند الله .

إن كل آية تتناول مسألة طبيعية أو حيوية أو مادية تنتهي بأفعال التقوى ، والإيمان وبالدعوى إلى ربط أية فاعلية بالله .

وهذا التأثير المتكرر له مغزاه الواضح . إن منطق التوازن الحركي الذي يرفض الانحراف والسكون هو القاعدة التي نلتمسها في القرآن الكريم بوضوح من خلال عدد كبير من آياته التي تكفل نموا سليماً لأية حضارة تستطيع أن تحافظ على نقطة التوازن بين تجربتي الروح والمادة ولا تنحرف باتجاه إحداهما مهملة الأخرى[1] .

إن إعجاز القرآن عام شامل لا يختص بعصر دون عصر ولا بقوم

---

(١) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم ، د . عماد الدين خليل : ٩٤ .

دون قوم ، ولئن أنزل في قوم الرسول ﷺ وهم أرباب الفصاحة والبيان في عربية معجزة بهرتهم وبهتتهم ، فإنه كان أساساً كتاب نور وهداية وعلم وإرشاد ، احتوى من المبادئ السامية والمثل العليا ما تصحّ به النفس البشرية وتتطهر وتتزكى وتبلغ القمة في السمو الروحي .

كما احتوى من الأصول الكلية ما يصلح الناس ويصلح لهم في كل زمان ومكان . واحتوى من الآيات الكونية ما ينبه الأذهان ويوجه النظر إلى البحث والتنقيب واستكناه حقائق الأشياء ، واستكشاف أسرار الكون وتطبيقها فيما ينفع الناس ، واستغلال ثروات الأرض وما أودعها الله من كنوز وقوى كونية قال تعالى :

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾(٣).

وقال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٥) .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٣٨ .

(٢) سورة النحل : الآية ٢٩ .

(٣) سورة الروم : الآية ٥٩ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٨٢ .

(٥) سورة الأعراف : الآية ٥٢ .

وقال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾[1].

فالعلم في القرآن الكريم يشمل كل أنواع المعرفة ومجالاته تتصل في كل ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم وفي معاشهم ومعادهم ، وفي أجسادهم وأرواحهم ، وهذا أمر طبيعي باعتباره نظاماً كاملاً خالداً للبشرية كافة ، ينظم شؤون الدين والدنيا معاً[2] .

وليس أبلغ في بيان هذه المجالات من قول صاحب الرسالة ﷺ : ((كتاب الله فيه نبأ من كان قبلكم وخير ما بعدكم وحُكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل من تركهُ من جبار قصمهُ الله ومن ابتغى الهدى في غيرهِ أضلّهُ الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الاهواء ولا تلتبس به الالسنة ولا يشبعُ منه العلماء ولا يخلقُ على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبُهُ هو الذي لم تنته الجنّ اذ سمعته حتى قالوا (انا سمعنا قرآناً عجباً يهدي الى الرشد) من قال به صدق ومن عمل به أُجر ومن حكم به عدل ومن دعا اليه هُدى الى صراط مستقيم...)) [3] .

وفي الحديث قال ﷺ : ((عليكم بالقرآن ، فإنه فهم العقل ، ونور الحكم، وينابيع العلم ، وأحدث الكتب بالرحمن عهداً . وقال في التوراة : يا محمد ! اني منزل عليك توراة حديثة تفتح فيها أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ،

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٤٩ .

(٢) مكانة العلم ومنهاجه ومجالاته في القرآن الكريم ، السيد علي السيد ، محاضرة ألقيت في قاعة المحاضرات الأزهرية في ٢١ أبريل ، ١٩٥٩ .

(٣) رواه الترمذي في سننه باب ما جاء في فضل القرآن ١٧٢/٥، وسنن الدارمي ٥٢٦/٢، ومصنف ابن ابي شيبة ١٢٥/٦ ومسند البزار ٧٢/٣.

وقلوباً غلفاً))[1] .

أ ــ موقف القرآن الكريم من العلم :

نبه القرآن الكريم إلى أهمية العلم منذ بداية نزوله إلى العلم بقوله تعالى: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[2] .

فهو أمر صريح للنبي ﷺ أن يقرأ وهو الذي لا يقرأ ، ودعوة واضحة إلى التعلم بالقلم في البيئة التي لم تكن تعلم.

فقد تميز الإسلام بأنه دين العلم ، وتميز القرآن من ضمن ما تميز به بأنه دعوة للعلم ، وتكرر لفظ العلم في القرآن الكريم في مواضع كثيرة فقد حث القرآن الكريم على النظر فيما يتعلم منه الإنسان في آيات كثيرة مثل : ﴿**قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾[3] .

بل دعا إلى السير في الأرض والهجرة للدراسة في آيات أخرى مثل: ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ** ﴾[4] .

(ولقد اثبت التقدم الفكري الحديث أن القرآن الكريم دعا إلى العلم دعوته إلى الدين ، وأنه دعا صراحة إلى دراسة مختلف العلوم ، وأنه حوى أصول هذه الدارسات في مختلف قطاعات العلم .

ونجد أن في كل علم جاء القرآن بأكثر من آية ، والعلم المقصود في

---

(١) سنن الدارمي : ٢ /٤٣٣ . وري من طرق عدة فيها الكديمي ، وهو ضعيف . يُنْظَرُ : جامع الأحاديث للسيوطي : ١٤/٢٩١ .

(٢) سورة العلق : الآيات ١ ــ ٥ .

(٣) سورة يونس : الآية ١٠١ .

(٤) سورة العنكبوت : الآية ٢٠ .

آيات القرآن ليس الفقه أو اللغة ، بل أنه العلم بأوسع معانيه)[1] **بدليل الآية:** ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا** ﴾[2] .

والآيات بعدها تفيد أن من ضمن العلم منطق الطير وحديثه ، فقد تعددت الآيات التي تحدثت عن علوم شتى كعلم الفلك ، وعلم الطبيعة والجغرافية والنبات ، والتأريخ الطبيعي ، والكيمياء ، والأجنة ، وعلم الصحة الغذائية ، والطب الوقائي ، والطب النفسي ، وعلم الوراثة ، وعلم الأحياء ، وعلم الإشعاع الذري ، وعلم الفضاء ، والآن نأخذ لكل علم آية واحدة على سبيل المثال لا الحصر ، إذ سنأتي إلى بيان واسع للآيات التي تكلمت عن هذه العلوم في المبحث الثاني (مجالات العلم في القرآن الكريم) .

مثال لعلم الفلك :

﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾[3] .

فقد جمعت حقائق مهمة في علم الفلك ، وهي حركة الشمس التي يقال عنها إنها أهم ما اكتشف في العصر الحديث ، وحركة الكواكب كلها وأن لكل كوكب فلكاً خاصاً به[4] .

مثال لعلم الطبيعة :

﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا**

---

(١) المسلمون والعلم الحديث ، عبد الرزاق نوفل : ٢٠ .

(٢) سورة النمل : الآية ١٥ .

(٣) سورة يسّ : الآيات ٣٨ ــ ٤٠ .

(٤) المسلمون والعلم الحديث ، عبد الرزاق نوفل : ٢١ .

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

وقد شملت أهم نظرية في خلق الكون وهي نظرية خلق السموات والأرض .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾[2] .

ولم يعرف إلا أخيراً أن الرياح تحمل السحب ذات الشحنات الكهربائية المختلفة فتلاقحها بعضها ببعض أو بالأرض ، وينتج من ذلك البرق فالرعد فالمطر[3] .

مثال لعلم الجغرافية :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[4] .

مثال لعلم النبات :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[5] .

مثال لعلم الحيوان :

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٣٠ .

(٢) سورة الحجر : الآية ٢٢ .

(٣) المسلمون والعلم الحديث ، عبد الرزاق نوفل : ٢١ .

(٤) سورة فاطر : الآية ٢٧ .

(٥) سورة الأنعام : الآية ٩٩ .

﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[1] .

مثال لعلم التأريخ الطبيعي :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[2].

تقرر هذه الآية أن الطيور والدواب تعيش معيشة تعاونية منظمة قبل أن يصل العلم إلى معرفة ذلك بمئات السنين[3] .

مثال لعلم الكيمياء :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾[4] .

وهذا نوع من أنواع الكيمياء ومن أهم فروع هذا العلم وأحدثه .

مثال لعلم الأجنة :

﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ﴾[5].

وقد سبق بها القرآن العلم بأربعة عشر قرناً ، إذ قرر أخيراً أن الجنين عند اكتمال نموه يكون محاطاً بثلاث أغشية صماء لا ينفذ منها الماء ولا الضوء ولا الحرارة وهي : (المتبارية) (والامينونية) (والخوربونية)[6] .

وقد أثبتت الاكتشافات الحديثة في هذا المجال مطابقتها لما جاء في

---

(١) سورة الغاشية : الآية ١٧ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٣٨ .

(٣) المسلمون والعلم الحديث ، عبد الرزاق نوفل : ٢١ .

(٤) سورة النحل : الآية ٦٦ .

(٥) سورة الزمر : الآية ٦ .

(٦) المسلمون والعلم الحديث ، عبد الرزاق نوفل : ٢١ .

القرآن الكريم فقد ألف البروفيسور الكندي (كث مور) كتاباً أسماه (مطابقة علم الأجنة لما جاء في القرآن والسنة) ترجم إلى ثماني لغات[١] مثال لعلم الصحة الغذائية :

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[٢] .

مثال لعلم الطب الوقائي :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ﴾[٣] .

وقد اكتشف العلم أخيراً أن هذه المواد تصيب الإنسان بإصابات مميتة[٤] .

(إن الآيات الواردة لتلفت الإنسان إلى أسرار الفطرة ، وتحث على تفقهها لا تقل عن سُبع آيات القرآن)[٥] .

يتضح مما سبق أن العلم الذي يدعو إليه القرآن هو على وجه الإطلاق لا التخصيص .

(فالعلم كل علم على وجه الإطلاق والعموم إنما هو إدراك ، ولا إدراك من دون حياة ، ولا حياة من دون روح ، فلا علم من دون روح ، فالعلم إنما هو عمل روحاني لطيف تساعد في تحققه الحواس الظاهرة .

---

(١) مطابقة علم الأجنة لما جاء في القرآن والسنة ، د . ناطق محمد النعيمي : ١٧ ، وهذا العالم الكندي (كث مور) دخل في الإسلام في مؤتمر إعجاز القرآن الذي عقد في القاهرة سنة ١٩٨٦ وألحق بعد إسلامه فصلاً من علم الأجنة بكتابه .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٣١ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٣ .

(٤) المسلمون والعلم الحديث ، عبد الرزاق نوفل : ٢٠ بتصرف .

(٥) الإسلام في عصر العلم ، د . محمد أحمد الغمراوي : ٢٢ .

والعلم معان روحانية لطيفة تعين على تحققها وانتقالها اللغة والألفاظ والنقوش ، ومنها الرموز الرياضية والكيمياوية والفيزياوية ، فالعلاقة بين فكر الإنسان ــ وهو قوة من قوى روحه ــ وبين ألفاظ اللغة ومعانيها علاقة وطيدة)[1] .

ولذلك دعا القرآن إلى استخدام الحواس الظاهرة لاكتساب العلم واستخدام الفكر والعقل .

ب ــ فضيلة العلم ومكانته والشواهد على فضيلته :

قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2] .

في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم ، فأنه لو كان أحد اشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء[3] .

فقد بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً وجلاءً ونبلاً[4] .

وقال في شرف العلم لنبيه ﷺ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[5] .

فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه كما أمره أن يستزيده من العلم .

---

(١) معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي ، د . عبد الله مصطفى : ٨٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ٤ /٤١ .

(٤) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي : ١ /٨ .

(٥) سورة طه : الآية ١١٤ .

وقال ﷺ : ((**العلماء ورثة الأنبياء**)) [1] .

ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة[2] .

وقال ﷺ : ((إن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب)) [3] .

فقد جعل الرسول ﷺ العلم مقارناً بدرجة النبوة ، وحط رتبة العمل المجرد عن العلم ، فجعل العلم أكبر رتبة من العبادة.

وقد وردت آثار كثيرة على فضيلة العلم منها ما قاله علي بن أبي طالب ﷺ لكميل بن زياد : يا كميل .. العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق ، وقال أبو الأسود الدؤلي : ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك[4] .

وقال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : خيّر سليمان بن داود ــ عليهما السلام ــ بين العلم والمال والملك فاختار العلم ، فأعطي المال والملك معه[5] .

وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ **آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ**

---

(١) صحيح البخاري : ١ /٢٦ .

(٢) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي : ١ /٩ .

(٣) سنن ابن ماجه : ١ /٨١ . وصححه ابن حبان : ٢٨٩/١ .

(٤) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي : ١ /١٣ .

(٥) المصدر نفسه : ١ /١٣ .

حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[1] .

إن الحسنة في الدنيا هي العلم والعبادة وفي الآخرة هي الجنة[2] .

وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾**[3] .

قال مجاهد : إن الحكمة هي (القرآن ، والعلم ، والفقه) وفي رواية أخرى عنه أنها العلم الذي تعظم منفعته وتجل فائدته[4] .

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : ((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له)) [5] . وهذا من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته، فإن ثوابه يصل إلى الرجل بعد موته ما دام ينتفع به فكأنه حي لم ينقطع ، مع ماله من حياة الذكر والثناء فجريان أجره عليه إذا انقطع عن الناس ثواب أعمالهم حياة ثانية .

ولذلك كان علماء السلف الناصحون لله ولدينه يبقون شباك الاجتهاد لصيد طالب ينتفع الناس به في حياتهم ومن بعدهم ، ولو لم يكن للعالم إلا طالب واحد ينتفع به لكان له نصيب من الأجر والثواب ، ومن هنا

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠١ .

(٢) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي : ١ /١٤ ، وذكر القول نفسه في تفسير هذه الآية أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط : ٢ /١٠٥ ، كما وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن : ٢ /٤٣٢ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٦٩ .

(٤) روح المعاني للآلوسي : ١ /٤٩٠ .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه : ١٦٣١ .

قال النبي ﷺ : ((فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها)) [1].

فخير النفوس تلك النفس الطيبة التي ترى سعادتها في إسعاد الناس وإرشادهم وتشهد سرورها من إدخال السرور عليهم وذود المكروه عنهم وتعد التضحية في سبيل الإصلاح العام ربحاً وغنيمة ، والجهاد في الحق والهداية على وعورة طريقهما وما فيه من مصاعب ومتاعب راحة ولذة ، كما أنها لا تجب ، ساعة اسعد من تلك التي تنقل فيها مخلوقاً من هوة الشقاء العادي ، وترشده إلى طريق الاستقامة والسعادة الأبدية وهذا لا يحصل إلا بالعلم والتعلم ، والجهاد فيه إلى أقصى حد يبلغ معه السعي ، ولذا يقول الإمام ابن القيم الجوزية تعليقاً على قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾[2] .

يقول : (وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد ، وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه ، بل لا بد من كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعد) [3] .

ويقول أيضاً : (فإن محبة الشيء فرع من الشعور به ، وأعرف الخلق بالله أشدهم حباً له ، فكل من عرف الله أحبه ، ولا سبيل إلى الدخول إلى ذلك إلا من باب العلم) [4] .

---

(١)أخرجه البخاري : ٤ /٧٣ ؛ ومسلم في فضائل الصحابة : ٣٥ ؛ وأحمد بن حنبل : ٥ /٢٣٨ .

(٢) سورة يوسف : الآية ١٠٨ .

(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم الجوزية : ١ /١٥٤ .

(٤) المصدر نفسه : ١ /١٣٦ .

ولشرف العلم وفضله قال النبي ﷺ: ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة)) [1] .

ويقول الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي ــ رحمه الله تعالى ــ :

(فكل طريق حسي أو معنوي يسلكه أهل العلم يعين على العلم أو يحصله فإنه داخل في قوله ﷺ) [2] .

ويقول الإمام الزهري ــ رحمه الله تعالى ــ في فضيلة العلم : (ما عبد الله بشيء أفضل من العلم) [3] .

ويقول سفيان الثوري : ــ رحمه الله تعالى ــ : (ما أعرف شيئاً أفضل من طلب الحديث ، إذا أريد به الله) [4] .

ويقول أيضاً :

(لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم) [5] .

وقال عبد الله بن وهب : الإمام المالكي ــ رحمه الله تعالى ــ : (كنت بين يدي مالك أكتب فأذن المؤذن وبين يديه كتب منثورة ، فبادرت لأجمعها ، فقال لي : على رسلك ، فليس ما تقم إليه أفضل مما أنت فيه ، إذا صحت فيه النية) [6] .

---

(١) أخرجه أبو داود : ٣٦٤٣ ؛ والترمذي : ٣٦٤٣ ؛ وأحمد : ٢ /٢٥٢ ــ ٣٢٥ ــ ٤٠٧ من حديث أبي هريرة ، وقال الترمذي : وأصله في صحيح مسلم .

(٢) الدلائل النورانية : ١٦ .

(٣) البداية والنهاية : ٩ /٣٤٥ .

(٤) تهذيب ابن عساكر : ٣ /٣٤٥ .

(٥) تاريخ بغداد : ١٠ /١٦٠ .

(٦) ترتيب المدارك : ٢ /٤٢٧ .

إن العلم يزيد الشرف شرفاً ويرفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك كما ثبت في الصحيح عن حديث الزهري عن أبي الطفيل (أن نافع بن عبد الحارث أتى عمر بن الخطاب ﷺ بعسفان وكان عمر استعمله على أهل مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادي ؟ قال : استخلفت عليهم ابن ابزى ، فقال : من ابن ابزى ؟ فقال : رجل من موالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى ؟ فقال : إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض ، فقال عمر : أما ان نبيكم ﷺ قد قال : ((إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين)) [1] .

وقال أبو العالية : (كنت اتي ابن عباس وهو على سريره وحوله قريش فيأخُذ بيدي فيجلسني معه على السرير فتغامز بي قريش ، ففطن ابن عباس فقال كذا العلم يزيد الشرف شرفاً ويجلس الملوك على الأسرة) [2] .

وقال ابن العميد : (ما كنت أظن أن في الدنيا حلاوة ألذ من الرياسة والوزارة التي أنا فيها حتى شهدت مذاكرة سليمان بن أيوب الطبراني ، وأبي بكر الجعابي بحضرتي . فكان الطبراني يغلب بكثرة حفظه وكان الجعابي يغلب الطبراني بفطنه وذكاء أهل بغداد حتى ارتفعت أصواتهم ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه فقال الجعابي عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي فقال : هاته ، فقال حدثنا أبو خليفة حدثنا سليمان بن أيوب وحدث بالحديث فقال الطبراني : أنا سليمان بن أيوب ، ومني سمع أبو خليفة ، فاسمع مني حتى يعلو إسنادك فإنك تروى عن أبي خليفة عني : فخجل الجعابي غلبه

---

(١) أخرجه مسلم : ٨١٧ ؛ وابن ماجه : ١ /٧٩ .

(٢) مفتاح دار السعادة ابن قيم الجوزية : ٢ /١٨ .

الطبراني قال ابن العميد فوددت في مكاني ، أن الوزارة والرياسة ليتها لم تكن لي ، وكنت الطبراني ، وفرحت مثل الفرح الذي فرح الطبراني لأجل الحديث) [1] .

وفي ترجمة الشيخ أحمد بن سليمان بن كمال باشا الذي يقال عنه : أنه قلما يوجد فن من الفنون إلا وله فيه مصنف أو مصنفات ، قال صاحب كتائب الشقائق النعمانية : (كان السبب الحامل له على الاشتغال بالعلم ، والباعث له على تحصيله أنه رأى مرة عند إبراهيم باشا بن خليل باشا وزير السلطان المجاهد بايزيد (ص ٢٩) خان شخصاً رث الهيئة خلق الثياب ، جاء وجلس فوق بعض الأمراء الكبار المتقدمين في الدولة فاستغرب ذلك وسأل عن السبب فيه : فقيل له : هذا شخص من أهل العلم يقال له ــ المولى لطفي ــ فقال : أيبلغ العلم بصاحبه هذه المنزلة ؟ فقيل له : نعم وأزيد فانقطع بعد ذلك الحين إلى المولى المذكور وقرأ عليه ثم قرأ على غيره إلى أن مهر وصار إماماً) [2] .

فالعلم هو النور الذي يبدد ظلام الجهل ، وهو القوة والعزة والمنعة بالعلم تزداد العقول هدى ورشداً وترقي بالنفوس فتمتلئ بالثقة والثبات .

(ولقد بلغت بنا رحمة الله وعنايته وهو العظيم الجبار في ملكوته ، فتعطف علينا في لحظة من لحظات الزمن فأنزل من السماء أول أمر وأعظم كلمة هبط بها جبريل عليه السلام فقال لمحمد ﷺ (أقرأ) .

وقالها محمد ﷺ لأصحابه وانطلقت بعد ذلك للمسلمين ليكونوا حملة

---

(١) مفتاح دار السعادة ابن قيم الجوزية : ٢ /١٩ ؛ وتهذيب ابن عساكر : ٦ /٢٤٣ ؛ وتذكرة الحفاظ للذهبي : ٣ /٩١٦ .

(٢) الطبقات السنية في تراجم الحنفية ، تقي الدين بن عبد القادر الداري : ١ /٤١٠ .

المشعل . مشعل العلم الهادئ وأمر الله عز وجل في أول آية نزلت في القرآن الكريم دليل واضح على أهمية العلم في تكوين عقل الإنسان وفي رفعه إلى المكانة السامية)[1] .

وأما الشواهد من القرآن الكريم على فضيلة العلم فهي :

أولاً : **بيان شرفه وفضله . بقوله تعالى :**

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾[2].

فبدأ الله سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم .

ثانياً : **رفعة أهله على غيرهم درجات بقوله تعالى :**

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[3] .

ثالثاً : قوة أهل العلم وقدرتهم بقوله تعالى :

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[4] . تنبيهاً إلى أنه اقتدر بقوة العلم .

رابعاً : **بيان أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم بقوله تعالى :**

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[5] .

خامساً : **بيان رتبة أهل العلم تلحق برتبة الأنبياء في كشف حكم الله**

---

(١) الدلائل النورانية لطالب الربانية ، عدنان سالم الرومي ، وعلي صالح الهزاع : ٢٠ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨ .

(٣) سورة المجادلة : الآية ١١ .

(٤) سورة النمل : الآية ٤٠ .

(٥) سورة القصص : الآية ٨٠ .

بقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾[1] رد حكمه في الوقائع إلى استنباطهم .

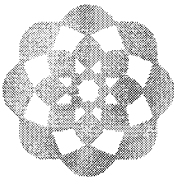

---

(١) سورة النساء : الآية ٨٣ .

المبحث الثاني

مجالات العلم في القرآن الكريم

(من مزايا القرآن الكثيرة مزية واحدة تلك هي التنويه بالعقل والتعويل عليه ففي كتب الأديان الكبرى إشارة صريحة إلى العقل وإلى التمييز ولكنها تأتي عرضاً غير مقصودة وقد يلمح فيها القارئ بعض الأحايين شيئاً من الزراية بالعقل أو التحذير منه لأنه مزلة العقائد وباب من أبواب الدعوة والإنكار .

ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضية في سياق الآية ... بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة ، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه . فمن خصائص العقل ملكة الإدراك التي يناط بها الفهم والتصور)[1] .

ولذلك دعا القرآن إلى استخدام العقل للوصول إلى الحقائق العلمية واكتشاف قوانين الكون وأسراره .

(فالذي يرجع إلى دراسة آيات الكتاب الكريم يجد أن آيات كثيرة تشمل جوانب العقيدة كلها بالبراهين الاستقرائية الحسية والنظرية التي

---

(١) التفكير فريضة إسلامية ، عباس محمود العقاد : ٣ .

أقامها)[1] .

ومما يستوقف النظر أن البراهين التي جاء بها القرآن وخصها بالتوكيد والتقرير هي أقوى البراهين إقناعاً واحراها أن تبطل القول بقيام الكون على المادة العمياء دون غيرها مثل ظهور الحياة من المادة ﴿ **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ**﴾[2] .

وبرهان التناسل بين الأحياء لدوام بقاء الحياة .

﴿ **جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا** ﴾[3] .

وقد بين القرآن الكريم أن من العلوم ما لا يتوصل إليه الإنسان عن طريق استخدام العقل أو النظر والتفكر بل أنه علم خاص لمن يختصه الله به كالإلهام ، والفراسة ، والعلم اللدني .

فالمتتبع للقرآن الكريم يجد أن مجالات العلم تكاد تنقسم إلى أقسام ثلاثة:

أولها : يتوصل إليها بالعقل الذي يدرك ما يتأمله ويقلبه على وجوهه ويستخرج منه بواطنه وأسراره ويبني عليها نتائجه وأحكامه .

ثانيهما : يدعو إلى استخدام البراهين الاستقرائية للوصول إلى الحقائق العلمية .

ثالثهما : علم رباني اختص الله به من يشاء من عباده هو الإلهام والعلم اللدني والفراسة .

---

(١) الفكر القرآني (دور العقل في بناء العقائد القرآنية) بحث للدكتور محسن عبد الحميد أحمد ملزمة مطبوعة لقسم الفلسفة لكلية الآداب .

(٢) سورة الروم : الآية ١٩ .

(٣) سورة الشورى : الآية ١١ .

وهذا ما سنبينه تفصيلاً فيما يأتي :

أ ــ العقل :

أوجه اهتمام القرآن الكريم بالعقل

لقد وردت كلمة (عقل) ومشتقاتها في القرآن الكريم أكثر من خمسين مرة كلها تدعو الإنسان إلى استخدام الحواس والتفكير والنظر من أجل الوصول إلى الحقائق العلمية الثابتة عن طريق العقل .

فالآيات التي ذكر الله فيها العقل تلفت النظر إلى قدرته تعالى التي لا تخفى على عاقل وإلى النعم التي أنعمها الله بها على عباده وإلى خلق الإنسان وما سخر له في السماء والأرض وإلى اختلاف الليل والنهار وإلى إحياء الأرض بعد موتها وإلى الموت بعد الحياة وكل هذه الآيات يخاطب الله الناس بها إلى استخدام العقل مرة بالاستفهام ومرة بالتقرير ومرة بالتقريع للذين لا يعقلون عظمة الباري وقدرته وللذين لا يستخدمون عقولهم التي منحها الله لهم.

فالعقل هو مناط التكليف في الدنيا وعليه يكون الحساب في الآخرة لذا أولاه القرآن اهتماماً كبيراً .

(والعقل هو قوة للنفس بما تستعد للعلوم والأدراكات وهو سبب من أسباب العلم وما ثبت عنه بالبداهة فهو ضروري وما ثبت بالاستدلال فهو اكتسابي .

فالبديهي منه ما يثبت منه بأول التوجه من غير احتياج إلى التفكير كالعلم بأن كل شيء أعظم من جزئه بعد تصور معنى الكل والجزء .

وما ثبت بالاستدلال أي النظر في الدليل فهو اكتسابي حاصل بالكسب

وهو مباشرة الأسباب بالاختيار كصرف العقل ، والنظر في المقدمات)[1].

(وهو نور روحاني به تدرك النفوس العلوم الضرورية والنظرية وهو مأخوذ من عقال البعير لما فيه من معنى الربط لأنه يربط الإنسان عن فعل النقائص)[2] .

وللعقل أسماء أخرى منها :

النهية ــ لأنه ينهى صاحبه عن القبيح واخبر القرآن عن هذا بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى** ﴾[3] .

اللب : لأنه خلاصة الإنسان ، وأخبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بست عشرة آية منها قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾[4] .

الحجر ــ لأنه يحجر صاحبه عن فعل القبيح .

الكيس ــ انعطافه وعدم الحمق .

الأرب ــ وهو الدهاء ، وله أسماء أخرى باعتبارات متغايرة فيسمى عقلاً باعتباره يدرك المنافع والمضار ويسمى نفساً باعتبار تسيير البدن والتصرف ويسمى روحاً باعتبار أنه حي ويظهر منه أثر الحياة .

(فالعقل في مدلوله لفظه العام ملكة يناط بها الوازع الأخلاقي أو المنع عن المحظور والمتكرر) .

ومن خصائص العقل مكلة الإدراك التي يناط بها الفهم والتصور وهي

---

(١) شرح التفتازاني على النسفية : ٤١ .

(٢) شرح النسفية ، د . عبد الملك عبد الرحمن السعدي : ٣٢ .

(٣) سورة طه : الآية ٥٤ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ١٩٠ .

على كونها لازمة لإدراك الوازع الأخلاقي وإدراك أسبابه وعواقبه تستقل أحياناً بإدراك الأمور فيما ليس له علاقة بالأوامر والنواهي ، أو بالحسنات والسيئات .

ومن أعلى خصائص العقل الإنساني الرشد وهو مقابل لتمام التكوين في العاقل الرشيد ووظيفة الرشيد فوق وظيفة العقل الوازع والعقل المدرك ، والعقل الحكيم لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف وعليها مزيد من النضج والتمام بمزية الرشاد حيث لا نقص ولا اختلال ، وقد يؤتى الحكيم من نقص في الإدراك وقد يؤتى العقل الوازع من نقص في الحكمة ولكن العقل الرشيد ينجو به الرشاد من هذا وذاك .

والقرآن الكريم يخاطب العقل الوازع والمدرك والحكيم والرشيد ولا يذكر العقل عرضاً مقتضباً ، بل يذكره مقصوداً مفصلاً على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان)[1] .

وقد أعطى القرآن الكريم دوراً كبيراً للعقل في بناء العقائد القرآنية (فكل من يقرأ القرآن بدقة وأنصاف يصل إلى حقيقة واضحة لا مناص للعاقل من قبولها وهي :

إن القرآن الكريم يقدم تقريراته الكونية من خلال إطار عقلي محكم أي: أنه لا يلجأ إلى فرض عقائده فرضاً غيبياً دون نظر أو مناقشة أو إقامة دليل .

ولأن كان المؤمن به يجد في نفسه ضرورة الإيمان من حيث الإجمال بعقائده من حيث التفصيل فإنه لا يفعل ذلك فعل الإذعان الجبري المفروض

---

(١) التفكير فريضة إسلامية ، عباس محمود العقاد : ٤ .

عليه من الخارج وإنما يوقن بذلك ويذعن له بعد ظهور الحق أمامه من خلال ثبوت الحجة ورسوخ البرهان .

وإذا رجعنا إلى دراسة آيات الكتاب الكريم وجدناها كثيرة تشمل جوانب العقيدة كلها بالبراهين الاستقرائية الحسية والنظرية التي أقامها ويكفي أن نستشهد ببعض الآيات القاطعة الدلالة على ما ذكر)[1] .

منها قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2] .

ومنها قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ

---

(١) الفكر القرآني ، ملزمة مطبوعة لقسم الفلسفة بكلية الآداب ، جامعة بغداد ، د . محسن عبد الحميد أحمد : ١٨ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٦٤ .

فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

فكان من الطبيعي أن لا يحتكم هذا الدين الخالد إلا إلى العقل والمنطق، والعلم لإثبات صدق الرسالة وتحقيق أهدافها ولا يعتمد على خوارق الطبيعة من المعجزات كما كان الحال بالنسبة إلى ما سبق من رسالات .

فبنور العقل وقف سقراط على عتبة التوحيد وبهدى العقل آمن بالله تعالى كثير من العلماء .

لأن الإنسان قادر بعقله على إدراك أسس الفضائل وأصول الأخلاق العملية والاجتماعية والتحلي بها وإخضاع الشهوات الجسدية لحكم العقل من غير إهمال لحق الجسد أو تفريط فيه .

وإنما تأمر به الشريعة الإسلامية وما يدركه العقل السليم بنفسه من الحق والخير والجمال يلتقيان عند نقطة واحدة بلا خلاف وأن الحكمة كل الحكمة هي فيما سلكه الشرع من مخاطبة الناس على قدر عقولهم دون مكاشفتهم بحقائق الحكمة وأسرارها[2] .

ب ــ العلم الاستقرائي :

(أن القرآن الكريم حفل بالآيات التي تنبه الأذهان إلى ظواهر الكون دليلاً على بارئه ومصوره ، وإظهاراً لعظمته وقدرته وتبياناً لرحمته بخلائقه، وتفصيلاً لآلائه ونعمائه وحثاً على اكتشاف الأسرار والقوى الكونية وتطبيقها وتسخيرها واستغلال كنوز الأرض وثروتها فيما يعود بالخير على البشر ، وقد احتوت تلك الآيات على حقائق علمية في شتى مجالات العلوم)[3] .

---

(١) سورة الأنعام : الآيات ٩٥ ــ ٩٩ .

(٢) قصة الإيمان ، الشيخ نديم الجسر : ٧٣ .

(٣) مكانة العلم ومنهاجه ومجالاته ، السيد علي السيد : ٢٥ .

(فيطرح القرآن الكريم حشداً من الحقائق والسنن والنواميس في مجالات العلم المختلفة .

الفلك ، والجغرافية ، والنبات ، والحيوان ، والإنسان في عدد واسع من المقاطع والآيات حتى أن كثيراً من الحقائق العلمية أصبح بمثابة قوانين نهائية بل بداهات مسلم بها لا تقبل نقضاً ولا تغيراً مثل الدور الذي تلعبه الرياح في عملية الأمطار .

أو من مثل الدور الذي تلعبه الجاذبية في حركة المجموع الشمسية

أو من مثل المراحل التشريحية التي يمر بها الجنين .

وغير هذه الحقائق أمور كثيرة ما كان العربي يعرفها يوم نزول القرآن أو يلم بأبعادها العلمية .

إن الحقائق التي يعرضها القرآن والتي تكون شواهد تقود الإنسان إلى الإيمان بالله القادر العالم المريد تنتشر وتتوزع على مساحة القرآن كله)[1] .

إن التفسير العلمي للآيات الكونية للقرآن الكريم ليس بدعة ابتدعها أصحابه في هذا العصر ، بل نجد بين قدامى المفسرين من انتهجه مطبقين في عصرهم ما يقابل العلم في عصرنا .

كالزمخشري ، والفخر الرازي ، فالزمخشري مثلاً في تفسيره لقوله تعالى :

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾[2] .

يقول : (والجوار هي السيارة) .

---

(١) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم ، د . عماد الدين خليل : ١١٢ .

(٢) سورة التكوير : الآيتان ١٥ ــ ١٦ .

(والكنس الغيب من كنس الوحش إذا دخل كناسه) .

قيل : هي الدراري الخمسة :

بهرام ، وزحل ، وعطارد ، والزهر ، والمشتري ، تجري مع الشمس والقمر وترجع حتى تختفي تحت ضوء الشمس فخنوسها رجوعها وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس .

وقيل : هي جميع الكواكب تخنس بالنهار وتغيب عن العيون .

وتكنس بالليل ــ أي تطلع في أماكنها كالوحش في كنسها[1] .

(وهذه معلومات لم تكن معروفة للقدماء .

قول الزمخشري (قيل) يدل على أن تفسير الآية بعلم ذلك العصر أقدم من عهد الزمخشري .

أما الفخر الرازي فتفسيره مملوء بالتفسير العلمي في عصره مثل قوله في تفسر :

﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾[2] .

إن قوله قدر يتناول المخلوقات في ذواتها وصفاتها كل واحد على حسبه فقدر السموات والكواكب والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والإنسان بمقدار مخصوص من الجثة والكتلة والعظم (الحجم) وقدر لكل واحدة منها من البقاء مدة معلومة ومن الصفات والألوان والطعوم والروائح والأيون[3] والأوضاع والحسن والقبح والسعادة والشقاوة والهداية والضلالة

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٤ /٧١٠ .

(٢) سورة الأعلى : الآية ٣ ، راجع الرازي مفسراً للأستاذ الدكتور محسن عبد الحميد : ٢٥٧ وما بعدها .

(٣) الأيون : جمع أين ، والاين : الحين .

مقداراً معلوماً على ما قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾[1] .

أما نهج محدثي المفسرين فيتبين من استعانة الشيخ محمد عبده ، بسنة الجاذبية في تفسير قوله تعالى :

﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾[2] .

فيقول : السماء ــ اسم لما علاك وارتفع فوق رأسك وأنت إنما تتصور عند سماعك (السماء) هذا الكون فوق رأسك فيه الشمس ، والقمر وسائر الكواكب تجري في مجاريها وتتحرك في مداراتها هذا هو السماء .

وقد بناه الله أي رفعه وجعل كل كوكب فيه بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة أو جدران تحيط بك وشد بعضها إلى بعض كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها فتتماسك به[3] .

ومن القائلين به قديماً الإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ وقد كان أكثر من استوفى بيان القول فيه ، ففي الإحياء يعرض له الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأي ويقرر .

(إن كل ما أشكل فهمهم على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه وأن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها)[4] .

---

(١) سورة الحجر : الآية ٢١ .

(٢) سورة الشمس : الآية ٥ .

(٣) مناهج المفسرين ، د . عبد الستار حامد ، ملزمة مطبوعة للدراسات العليا في كلية العلوم الإسلامية ، جامعة بغداد .

(٤) إحياء علوم الدين ، الإمام أبو حامد الغزالي : ١ /٧٠ .

وممن قال بهذا التفسير جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ (وأبو الفضل المرسي (ت ٦٨٦ هـ) .

وقد استدل هؤلاء على أن القرآن الكريم يشتمل على جميع العلوم .

ويقول ابن مسعود ﷺ : (أنزل في هذا القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شيء ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن) [١] .

وقال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ :

(لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى) [٢] .

وفي العصر الحديث قام بعض العلماء يؤيدون هذا المنهج العلمي في التفسير وقد ألفت كتب كثيرة في هذا المجال .

فقد ألف في الإشارات العلمية والكونية والنفسية التي تدل عليها الآيات القرآنية على العلماء .

وفي طليعتهم الشيخ طنطاوي جوهري فقد كان فارس هذا الميدان بحق بحيث كان يؤمن بأن من الضروري أن يفسر القرآن بالعلم الحديث .

فكتب تفسير (الجواهر) ومزج فيه الآيات القرآنية بالعجائب الكونية.

والدكتور محمد أحمد الغمراوي الذي أجرى في كتابه (الاسلام في عصر العلم) مقابلات دقيقة بين القرآن والحقائق العلمية . وأحمد مختار باشا في كتابه (سرائر القرآن في تكوين وافناء وإعادة الأكوان) .

وقد أثنى عليه الأمير شكيب أرسلان فقال في حقه :

(هو كتاب لم يخدم القرآن بمثله إلى اليوم لأن يقرر أكثر النظريات

---

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور : ١ /٥٤ .

(٢) روح المعاني ، للآلوسي : ٧ /١٤٤ .

الحديثة المتعلقة بالخلق وبداية الحياة ، والفلك والأجرام وغير ذلك بعد أن يشفي الغليل بتقريرها وترخيص أحدث النظريات فيها ، يورد الآية الكريمة ساطعة كالشمس في إفادة ذلك المعنى)[1] .

والسيد عبد الرحمن الكواكبي في كتابه :

(طبائع الاستبداد ومصانع الاستعباد) الذي ذكر فيه اشتمال القرآن على النظريات العلمية المختلفة المؤيدة لإعجاز القرآن الكريم .

والسيد حنفي أحمد في كتابه :

(معجزة القرآن في وصف الكائنات) جمع فيه الآيات الكونية في القرآن الكريم وقسمها حسب موضوعاتها إلى خمسة أقسام[2] .

والسيد عبد الرزاق نوفل الذي قام بمحاولات جيدة ربط فيها بعض الآيات العلمية بالعلوم الحديثة في كتبه :

- ❖ الله والعلم الحديث .
- ❖ الإسلام والعلم الحديث .
- ❖ القرآن والعلم الحديث .
- ❖ المسلمون والعلم الحديث .

والدكتور عبد السلام داود في كتابه :

(الإيمان بين الآيات القرآنية والحقائق العلمية) .

والدكتور عبد السلام الكرواني في كتابه :

(الإعجاز العلمي في القرآن الكريم) .

---

(١) مناهج المفسرين ، د . عبد الستار حامد : ٤٨ .

(٢) القرآن والإعجاز العلمي ، د . عبد الستار حامد ، بحث منشور ضمن بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني المعقود في بغداد سنة ١٩٩٠ : ٣٣٨ .

والدكتور محمد جمال الدين فندي في كتابه :

(الآيات الكونية في القرآن الكريم) .

والدكتور خالص جلبي في كتابه :

(الطب محراب للإيمان) .

والشيخ محمد بخيت ــ مفتي الديار المصرية في كتابه :

(تنبيه العقول الإنسانية لما جاء في القرآن من العلوم الكونية والعمرانية) .

والأستاذ المهندس رائق نجم في كتابه :

(الإعجاز العلمي في القرآن الكريم) .

والأستاذ أحمد محمود سليمان في كتابه :

(القرآن والعلوم) .

والأستاذ محمد محمود إبراهيم في كتابه :

(إعجاز القرآن في علم طبقات الأرض) .

والأستاذ الدكتور عبد العزيز إسماعيل في كتابه :

(الإسلام والطب) .

والأستاذ محمد ابن أحمد الإسكندراني الطبيب من أهل القرن الثالث عشر في كتابه : (كشف الأسرار النورانية القرآنية) .

فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية .

وكتابه أيضاً :

(تبيان الأسرار الربانية في النباتات والمعادن والخواص الحيوانية) .

والأديب المصري مصطفى صادق الرافعي ــ حيث يعقد فصلاً في إعجاز القرآن الكريم عنوانه :

(القرآن والعلوم) .

أشار فيه إلى احتواء القرآن الكريم على جمل العلوم وأصولها ويأخذ في ذلك بالبعيد والقريب[١] .

فضلاً عن عشرات البحوث التي كتبت لتشير إلى اكتشاف حقائق علمية جديدة تضمنتها آيات قرآنية لم يكتشفها العلماء إلا في هذا القرآن ، مما يدل على إعجاز القرآن وعظمة الخالق .

منها :

بحث للدكتور محمد توفيق صدقي في علم الفلك والقرآن يستدل بمعارف الفلك في العصر الحديث على موافقة ما ورد في القرآن عن السماء والأرض والكواكب للعلوم الحديثة .

ومنها :

بحث للأستاذ عبد الحافظ حلمي محمد بعنوان : (العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن)[٢] .

وغير ذلك من الجهود التي تتجدد بين الحين والآخر لربط النص القرآني بالنتيجة العلمية الثابتة التي لا تتغير[٣] .

وفيما يأتي نماذج من الحقائق العلمية الكونية التي تم التوصل إليها في

---

(١) مناهج تجديد لأمين الخولي : ٢٨٩ .

(٢) بحث منشور في مجلة عالم الفكر الكويتية .

(٣) منهج التفسير العلمي ، بحث للدكتور عبد الستار حامد ضمن ملزمة مطبوعة للدراسات العليا لكلية العلوم الإسلامية ، جامعة بغداد : ٤٨ .

الاكتشافات الحديثة .

ولنبدأ بأول آية في القرآن الكريم بعد البسملة وهي :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1] .

فإن كلمة العالمين بالجمع ــ فاجأت العرب فهم لم يكونوا يعرفون إلا عالماً واحداً هو الذي يعيشون فيه . وإذا بهم يسمعون أن هنالك عوالم أخرى غيره .

والتمس بعضهم تلك العوالم فقال : هي عوالم الإنس والجن والملائكة ــ وقالوا : هي عوالم الحيوان والنبات والجماد .

ولكن ليس كل ذلك بموف بمعنى لفظ (العالمين) ولكن إذا التزمنا بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة فلا مناص من اعتبار عالمنا واحداً من مجموعة عوالم تشبهه .

ثم جاء علم الفلك الحديث بمراقبه ومراصده وتحليلاته الرياضية وغيرها فبين للناس أن المجموعة الشمسية التي نعرفها ليست في هذا العالم المجرى شيئاً مذكوراً ، فهناك عوالم مجرية ترى مترامية الأبعاد تعد بالملايين.

لكن ليس هذا بكاف فعالمنا فيه أرض تدور حول الشمس ولها ، فلماذا لا يكون في تلك العوالم الأخرى عالم شبيه بعالمنا تكون فيه أرض تدور حول الشمس ويكون فيها حياة ؟ .

هل وصل العلم لشيء بالنسبة لذلك ؟ . كل ما وصل إليه العلم هو وجود الحياة على غير أرضنا أمر ممكن بل راجح .

---

(١) سورة الفاتحة : الآية ٢ .

وفي القرآن ما يؤيد هذا الفهم وهذا الترجيح فإن الله نزل القرآن ينبئنا أن هناك أرضين أخرى مثل أرضنا بقوله تعالى :

﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾[1] .

فيلاحظ من الآية الأولى نصاً في صحة تعدد العوالم ، ليس مجرد عالم الإنس والجن والملائكة أو عالم الحيوان والنبات والجماد ولكنه عالم فلكي بدلالة أن الآية والتي تليها تتناولان خلق الأرض على شطرين أو على مرحلتين.

لما كان الشطر الثاني في الآية الثانية : ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ** ﴾[2] متعلقاً بتطورات خلق الأرض تجعلها صالحة للحياة فيها فإن شعر خلقها في الآية الأولى .

﴿ **بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ** ﴾[3] .

متعلق بتكوين أرضنا أول ما تكونت عند ميلادها وتكون خاتمة تلك الآية : ﴿ **ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾[4] . متعلق على الأخص بالمعنى الفلكي الذي

---

(١) سورة فصلت : الآيات ٩ ــ ١٢ .

(٢) سورة فصلت : الآية ١٠ .

(٣) سورة فصلت : الآية ٩ .

(٤) سورة فصلت : الآية ٩ .

هو موضوع الآية .

ويلاحظ أن يومي الخلق المذكورين في الآية الأولى داخلان طبعاً في الأيام الأربعة المذكورة في الآية الثانية إشارة إلى أن طورى الخلق متداخلان فإذا انتقلنا إلى الآية الثالثة .

﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ** ﴾[1] .

وأذن فقد كان هناك قبل خلق السموات السبع أرض واحدة ثم خلقها وسماء واحدة كانت دخاناً ، وواضح أن خلق السماء إذ ذاك سماوات سبعاً (المشار إليه في الآية الرابعة) .

كانت طاعة من السماء لنصيبها من الأمر ﴿ **ائْتِيَا** ﴾ في الآية الثالثة ، إذن فما نصيب الأرض وقد قالتا ﴿ **أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ هل الأرض المخاطبة بهذا الأمر هي أرضنا ؟

إن القرائن تمنع من ذلك لأن أرضنا كان سبق تشكيلها وتم خلقها خلق جمالها والحياة فيها قبل صدور ذلك الأمر فهذه القرينة تحتم أن تكون الأرض المخاطبة بهذا الأمر في الآية الثالثة هي غير الأرض في الأولى.

وتكون (الـ) في الأولى للعهد و (الـ) في الثانية للجنس وهناك من القرائن ما يؤيد هذا الاستنتاج .

إن المقابلة تامة في اللغة بين كلمتي ـ أرض وسماء ـ وكذلك هي تامة في الآيات الثلاثة الأولى .

حيث لم يكن هناك إلا أرض واحدة وسماء واحدة ، كان في ذلك إشارة مغنية إلا أن السماوات السبع المذكورات في الآية الرابعة يقتضي وجود من

---

(١) سورة فصلت : ١١ .

وجود سبع أرضين يقمن بإزائهن .

أرض تقابل كل سماء ولما كانت احداهن موجود بالفعل تامة بالخلق حين صدور الأمر كان المخاطب المعني بالأمر هو الأرضين الست الأخرى المقابلة للسماوات الست الجديدة خلقهن سبحانه وتعالى كلهن من السماء الدخانية الأولى وتكون (الـ) في لفظ الأرض في الآية الثالثة هي للجنس كما استنتجنا[1] .

ومن الحقائق العلمية التي توصل إليها العلم (اللولبية الشاحبة ـ أفعى الزنا) .

فقد نهى الله سبحانه وتعالى عن هذا الفعل الشنيع بقوله تعالى :

﴿ **وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾[2] .

إن الزنا فاحشة يؤدى إلى ضياع الأسر والبيوت وفسادها من ناحية اجتماعية .

ولكن من الناحية العلمية ـ يؤدى إلى الأمراض الفتاكة (كالزهري) والسيلان و(الأيدز) .

ونضرب مثلاً علمياً واحداً يدخل تحت قوله تعالى :

﴿ **فَاحِشَةً** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **سَاءَ سَبِيلاً** ﴾ .

فمرض الزهري وحده الذي فيه (أفعى الزنا) والتي تدخل جسم الإنسان في صمت لأن الزنا يجري بتستر وصمت وتتسلل إلى العقد اللمفاوية ثم إلى أوردة الدم ومن ثم إلى الشرايين وتتركز في الشرايين الصغيرة

---

(١) نماذج من الإعجاز العلمي للقرآن ، د . عبد السلام الكرداني : ٢٧ وما بعدها .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٣٢ .

وتتوزع على البدن كله .

سبيلها السيئ إلى جسم الإنسان وهو الذي يعيش على اللهو الفارغ والمجون ووصل الجنس ﴿ **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ**﴾[1].

وأفعى الزنا هذه تعطب العصب البصري وتحل الدمار بالدماغ وتوجد التشنج والترنح وقلة الفهم والطاقة الإنتاجية وغيرها من العوارض الأليمة[2].

وهذا مصداق قوله سبحانه وتعالى في الإشارات العلمية الطبية هنا ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا** ﴾[3] .

إلى غير ذلك من الآيات التي لم تتضح حقيقة الإشارة العلمية فيها إلا بعد أن اتسعت آفاق الاكتشافات وفي الأحاديث النبوية الشريفة دعوة إلى التعلم واكتساب العلم واكتشاف أسرار الكون والاستفادة منه[4] .

الضياء والنور في القرآن الكريم والعلم :

ورد لفظ الضياء وبعض مشتقاته في ست آيات من آي القرآن الكريم ورد خمس منها مراداً به الضياء الحسي في مثل قوله تعالى :

﴿ **يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ** ﴾[5] .

وفي قوله تعالى :

---

(١) سورة هود : الآية ١٠٢ .

(٢) الطب محراب الإيمان ، د . خالص جلبي : ٢٠٣ .

(٣) سورة الطلاق : الآيتان ٨ ــ ٩ .

(٤) مناهج المفسرين ، د . عبد الستار حامد ، ملزمة مطبوعة للدراسات العليا ، كلية العلوم الإسلامية ، جامعة بغداد : ٥١ .

(٥) سورة النور : الآية ٣٥ .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً ﴾[1] .

وورد في واحدة منها مراد بها الضياء المعنوي أي الهداية إلى الحق في مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2] .

وورد لفظ النور وبعض مشتقاته في آيات كثيرة من آي القرآن نحو خمسين ورد في اثنتين منهما مراداً به النور الحسي في قوله تعالى :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾[3] .

وفي قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾[4] . وورد في الآيات مراداً به النور المعنوي ، أي الهادي إلى الحق في مثل قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾[5] .

وأكثر معاجم اللغة العربية لا تفرق بين معنى الضياء ومعنى النور فمعنى كل منهما الضوء المنتشر من الأجسام النيرة الذي يعين على

---

(١) سورة يونس : الآية ٥ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٤٨ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٧ .

(٤) سورة النور : ٣٥ .

(٥) سورة المائدة : الآية ٤٤ .

الأبصار، وبعض المعاجم ذكرت أن الضياء أخص من النور ومن يتدبر آيات القرآن التي ورد فيها لفظ الضياء ومشتقاته يتبين له أن القرآن استعمل الضياء للأجسام التي تضيء بذاتها كالنار في قوله تعالى :

﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ** ﴾ .

والبرق في قوله :

﴿ **يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ** ﴾ .

والشمس في قوله :

﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً** ﴾ .

ومن يتدبر آيات القرآن التي ورد فيها لفظ النور ومشتقاته يتبين له أن القرآن استعمل النور للضوء المكتسب المعكوس من الأجسام المظلمة كما ورد في قوله تعالى :

﴿**نُورٌ عَلَى نُورٍ**﴾.

فقد سمى الله سبحانه الضوء اللامع المعكوس من زجاجة المصباح التي هي جسم مظلم بنفسه نوراً .

ومن هذا ينتج أن القرآن الكريم استعمل الضياء ، وأضاء ويضيء للأجسام التي تضئ بذاتها ، واستعمل النور ومشتقاته لما تكسبه الأجسام المظلمة من الأجسام المضيئة ثم تعكسه .

وقد قرر العلم الحديث التفريق بين الضوء الذاتي والضوء المعكوس، فالضوء الذاتي هو ما يصدر عن الأجسام المضيئة بذاتها وهو الذي سماه نوراً ، فاستعمال القرآن التفريق بين الضوء الذاتي والضوء المعكوس يعد

معجزة علمية كشفها العلم الحديث ولعل هذا يظهر السر في أن الله سبحانه وصف رسوله بأنه سراج منير ، ولم يقل أنه سراج مضيء ليشير إلى أن الرسول ﷺ لا يضيء بنفسه وإنما هو ينير بالضوء الذي يكتسبه من وحي الله إليه[1] .

النجوم وضياؤها وحركتها في القرآن وفي العلم :

ومن الآيات التي ورد فيها وصف النجم وبيان بعض خواصه قوله تعالى في سورة الطارق :

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾[2] .

وقوله تعالى في سورة الأنعام :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[3] .

وقوله تعالى في سورة النحل :

﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[4] .

وقد ذكر المفسرون في تفسير هذه الآيات ما خلاصته في تفسير آية الطارق :

---

(١) معجزة القرآن في وصف الكائنات : ١٤١ وما بعدها نقلاً عن الإعجاز القرآني ، بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني ، ١٤١٠ ــ ١٩٩٠ .

(٢) سورة الطارق : الآيات ١ ــ ٤ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٩٧ .

(٤) سورة النحل : الآيتان ١٥ ــ ١٦ .

اقسم بالسماء والطارق معناه لغةً : القادم والآتي والظاهر ليلاً ، وأشار إلى تفخيم شأن الطارق بقوله :

﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ** ﴾ وبين المراد به بقوله ﴿ **الـنَّجْمُ الثَّاقِـبُ** ﴾ والثاقب هو المضيء الذي يثقب الظلام بضيائه ، وهو اسم للثرياء ولكل نجم مضيء .

وفي تفسير آية الأنعام قالوا :

الله سبحانه امتن على عباده بأنه جعل لهم النجوم ليهتـدوا بهـا فـي سيرهم براً وبحراً أثناء ظلمة الليل ، وقد فصل بذلك الدلائل لقوم يتفكـرون بعقولهم ويستدلون بما يشاهدون على ما غاب عنهم .

وفي تفسير آية النحل قالوا :

امتن الله سبحانه على عباده بأن ألقى في الأرض جبالاً راسيات لأجل أن لا تميد الأرض ولا تضطرب (وأنهاراً وسبلاً) لتكون وسائل لاهتـداء الناس (وعلامات) أي امارات يهتدون بمعالمها في سيرهم نهاراً وفي ظلام الليل هم بضياء النجوم يهتدون وبالنظر في الآيات الكريمة وفيها فسرت بـه يتبين أن القرآن وصف النجم بأنه الثاقب ، ووصف النجم بأنه يهتدى بضيائه في ظلام الليل ويؤخذ من هذا أن النجم مضيء بذاته وضؤوه يثقب الظـلام وينفذ فيه ، وبهذا الضوء يهتدى السائرون ليلاً ، ويؤخذ أيضاً مـن وصـف النجم بالطارق أن النجوم متحركة لا ساكنة ، لأن من معاني الطرق القـادم والآتي وهي من صفات المتحرك ، والسبب في أننا نراها ساكنة مع أنها في الحقيقة متحركة هو بعدها الساحق عن الأرض لأنها في السماوات العـلا ، ومن الظواهر التي نشاهدها أننا نبصر بعض الأجـسام المتحركـة بحركـة

سريعة على بعد ساحق كأنها ساكنة ، فالقرآن الكريم دلّ علـــى أن النجـــوم أجرام نيرة مضيئة بذاتها ، لأنه وصف النجم بأنه ثاقب وبأنه يهتـــدى بـــه ، ودل على أنها متحركة لأنه وصف النجم بأنه طارق والطروق للمتحرك وما يرى لعيوننا أنها ساكنة فهو ظاهري فقط .

والعلم قرر أن النجوم أجرام غازية شديدة السخونة أي أنها في درجات حرارة عالية وهي لهب مضيء ، وقرر أنها متحركة وأن رؤيتها ساكنة هو لبعدها السحيق عن الأرض ، فما دلت عليه آيات القرآن في وصف الـــنجم أيده العلم ببحثه واستكشافاته .

التناسل البشري :

التناسل البشري موضوع تناولته مؤلفات الأقدمين فلم يسلم واحد منها من عرض مفاهيم خاطئة كلما دخل في تفاصيل القـــضية وفـــي العـــصور الوسطى بل وحتى في عصر غير بعيد جداً من عصرنا كانت تحيط بمسائل التناسل ضروب من شتى الأساطير والمعتقدات الباطلة فكيف لا يكون الأمر كذلك ، وقد كان على الإنسان لكي يفهم المسائل المتصلة بالبنـــاء التناســـلي المعقد ، أن يعرف علم التشريح وأن يكتشف المجهر (المكر ســـكوب) وأن يشهد ميلاد العلوم الأساسية التي تزود منها علم وظائف الأعضاء ، وعلـــم الأجنة وفن التوليد ، إلا أن الأمر يختلف كل الاختلاف بالقياس إلى القـــرآن الذي يذكر في عدد من آياته أجهزة يعينها بدقة ، ويتناول مراحـــل التناســـل فيحددها بوضوح فلا يقدم إلى قارئه مسألة واحدة بشر بها ولو ذرة من خطأ، وقد بسط القرآن كل ذلك بعبارات سهلة يهون فهمها على الناس وتوافق كـــل الموافقة ، ما اكتشفه العلم بعد مرور زمن طويل من نزول القرآن .

يبرز القرآن ما يقطعه الجنين من مراحل التحول في الرحم فيقول : ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾[1] . ﴿ **مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا**﴾[2] .

وبالإضافة إلى هذه النظرات العامة يلفت القرآن الكريم الانتباه إلى عديد من المسائل التي لها علاقة بالتناسل وهي مسائل يمكن تصنيفها كما يلي:

١ ــ حصول الأخصاب بفضل قدر ضئيل من سائل (نطفة) .

٢ ــ طبيعة السائل المخصب .

٣ ــ إفراز بيضة الأخصاب .

٤ ــ تطور الجنين .

﴿ **خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ** ﴾[3] ويذكر القرآن هذه الحقيقة إحدى عشرة مرة وقد ترجمنا لفظ (نطفة) الواردة في القرآن بعبارة (قطرة من المني) إذ أنه لا يوجد في الفرنسية لفظ واحد يقابل (نطفة) وتوضح الآية التالية طبيعة السائل : ﴿ **أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ** ﴾[4] ، وتبين أن آية أخرى أن هذه النطفة تستقر في مكان ثابت منقول :

﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ** ﴾[5] .

---

(١) سورة الانفطار : الآيات ٦ ــ ٨ .

(٢) سورة نوح : الآيتان ١٣ ــ ١٤ .

(٣) سورة النحل : الآية ٤ .

(٤) سورة القيامة : الآية ٣٧ .

(٥) سورة المؤمنون : الآية ١٣ .

ويذكر القرآن هذا السائل الذي يسبب الأخصاب فيصفه بأوصاف ينبغي الوقوف عندها وتأمل معناها :

أ ــ فهو يذكر (المني) في الآية ﴿ **أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى** ﴾

ب ــ ويذكر في الآية أن الإنسان ﴿ **خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ** ﴾[1] .

جـ ــ وورد في الآية : ﴿ **أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ** ﴾[2] .

د ــ وورد في الآية لفظ (أمشاج) أي أخلاط ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ** ﴾[3] .

وقد رأى بعض المفسرين القدامى والمحدثين أن المقصود بأمشاج أخلاط من عناصر الذكر والأنثى ، ولم يكن لهؤلاء المفسرين أية فكرة عن طبيعة الأخصاب ولا سيما من أحواله البيولوجية من جهة المرأة فتبادر إلى أذهانهم أن اللفظ إنما يشير إلى اتحاد العنصرين .

إلا أن بعض المفسرين المحدثين أمثال مؤلفي (المنتخب) الذي صدر عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة قد صححوا هذا النظر وبينوا أن نطفة المني (مزودة بعناصر شتى)[4] ولم يقدم المنتخب أية تفاصيل عن هذه المسألة إلا أن نظرته صائبة جداً .

وفضلاً عن ذلك فإن القرآن الذي يحدثنا عن سائل مخصب مؤلف من عدة عناصر ، فإنه يخبرنا بأن الله جعل نسل الإنسان من شيء يمكن استخلاصه من سائل وهذا هو المقصود بهذه الآية الكريمة :

---

(١) سورة الطارق : الآية ١٣ .

(٢) سورة المرسلات : الآية ٢٠ .

(٣) سورة الدهر : ٢ .

(٤) المنتخب في تفسير القرآن الكريم : ٨٧١ .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾[1] .

فلفظ سلالة هنا يدل على شيء مستخلص من شيء آخر والذي يحدث فعلاً هو أن جزءاً ضئيلاً جداً من خلاصة سائل معقد التركيب هو الذي ينشط فكيف لا تصيبنا الدهشة أمام هذا التوافق بين النص القرآني والمعارف العلمية التي يتيحها لنا عصرنا في هذا الموضوع .

حينما تخصب البيضة في الخرطوم تنزل إلى تجويف الرحم وهذا ما يسمى بإفراز البيضة في الرحم بانتشار الزغابات التي هي امتدا للبيضة والتي تأخذ من غلظ العضو وهو أمر لا بد منه لنمو البيضة وهذه التشكيلات تجعل البيضة تعلق بالرحم .

ويذكر القرآن هذا العلق الذي لم يعرف إلا في العصر الحديث ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ** ﴾[2] .

وتتكرر هذه المسألة في أربع آيات هي :

﴿ **فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ** ﴾[3] .

﴿ **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا**﴾[4].

﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً**﴾[5] .

---

(١) سورة السجدة : الآية ٨ .

(٢) سورة العلق : الآية ١ .

(٣) سورة الحج : الآية ٥ .

(٤) سورة المؤمنون : الآية ١٤ .

(٥) سورة المؤمن : الآية ٣٨ .

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾[1] .

يذكر القرآن مسألة تطور الجنين داخل الرحم بكيفية تطابق تمام المطابقة ما نعرفه اليوم عن بعض أطوار نمو الجنين ، والقرآن لم ينطق في هذا الشيء يخالف العلم الحديث ونورد فيما يلي بعض الآيات التي تشير إلى هذه الأطوار :

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾ .

من المعروف أنه في أثناء نمو الجنين تظهر بعض الأطراف بصورة غير متناسبة مع الشكل الذي يتخذه الفرد فيما بعد ، بينما تكون أطراف أخرى متناسبة .

أليس هذا هو ما يعنيه لفظ (مخلقة) أي متناسبة التكوين (مسواة لا عيب فيها) في الآية التي تقول : ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾[2] .

ويذكر القرآن ظهور الحواس والأعضاء الباطنة بقوله : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾[3] .

ويشير إلى تكوين الجنس بقوله :

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾[4] .

وبمقارنة كل هذه الآيات التي نطق بها القرآن ، بمبادئ التي أقرها

---

(١) سورة القيامة : الآية ٣٨ .

(٢) سورة الحج : الآية ٥ .

(٣) سورة السجدة : الآية ٦ .

(٤) سورة النجم : الآيتان ٤٥ ــ ٤٦ .

العلم الحديث يتضح لنا بالبداهة التوافق الموجود بينهما إلا أنه من الأهمية بمكان كبير مقارنة تلك الآيات بالمعتقدات التي كانت سائدة عن مسائل التناسل في عصر الوحي الإسلامي ، إذ بذلك يتضح أن الناس الذين عاشوا في ذلك العصر كانوا أبعد ما يكونون عن الأخذ بنظر ما يشابه ما نطق به القرآن بخصوص هذه المشاكل ، ولم يتمكن الإنسان من أن تكون له نظرة واضحة في هذا الموضوع إلا في القرن التاسع عشر الميلادي .

أن ما نطق به القرآن في موضوع التناسل البشري ليبين بعبارات سهلة طائفة من الحقائق الأولى التي يكتشفها الإنسان إلا بعد قرون عديدة من الكد والاجتهاد[1] .

وراثة الصفات :

تضمن القرآن أهم النظريات العلمية التي بنيت عليها قواعد علم الوراثة الذي يعتبر من أهم العلوم التي يتميز بها العصر الحديث ، منها نظريات زواج الأقارب والأباعد أو تربية الأقارب والأباعد أو تحديد الجنس في الإنسان وأن من ضمن النظريات العلمية في علم الوراثة التي سبق القرآن بها هذا العلم نظرية وراثة الصفات فمنذ قامت أسس الدراسة في علم الوراثة اتجهت أنظار العلماء إلى دراسة السلوك الوراثي للصفات وأجريت التجارب المختلفة آلاف المرات على مختلف الأصناف والأنواع من الكائنات وقد كانت الآراء متباينة مختلفة في هذا الشأن ، فمن قائل أن الصفات الكمية

---

(١) نقلاً عن كتاب عالم فرنسي يدرس القرآن على ضوء المعارف العصرية وهو الطبيب الجراح (موريس بوكاي) ترجمة محمد العربي الخطابي نشرت ملخصة آفاق عربية سنة ١٩٧٧ العدد الأول : ٥٤ ــ ٦٧ .

إنما تورث من الأب فقط ، وزاد على ذلك قول آخر بأن الصفات إنما تتسلسل من العصب لأجيال طويلة . وليس للأم ولا لعائلتها أي تأثير في صفات الفرد ، وكل فريق تمكن من إيجاد أمثال وحكم ومواعظ تؤيد رأيه إلا أن توصل فرانس حولتن في عام ١٨٩٧ ميلادية إلى وضع قانون أسماه : (قانون التوارث عن السلف) استمده من نتائج أبحاثه ، يتلخص هذا القانون في أن كل فرد من الأفراد يأخذ نصف صفاته من أبيه والنصف الآخر من أمه وكل من هذين يأخذ نصف صفاته من كل أبويه بالتساوي إذ قد وجد أن كل نواة لخلية بشرية ، تحتوي على ٤٨ من الكروموزومات فيما عدا خلايا البويضة والنطفة فإنها تحتوي نصف العدد ويتم العدد بتزاوجها ، وهذه الكروموزومات تحوي الجراثيم المورثة التي تعد أصل وراثة الإنسان للصفات ولما كان كل من الأب والأم قد أسهم بعدد مساوٍ من الجراثيم فإن الأب والأم يتساويان لذلك في توريث الصفات للإنسان واعتبر هذا القانون نصراً للعلماء والعلم .

ومن عجب أن القرآن الكريم قد قرر هذه النظرية قبل العلم بعشرات المئات من السنين إذ يقول في سورة مريم ﴿ **يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا** ﴾[١] .

أي أن مريم لا يمكن أن تكون خاطئة أو آثمة إذ لم تورث هذا الخطأ من الأب أو من الأم أي أن الصفات تورث من الأب والأم[٢] .

السماء والأرض كانتا جسماً واحداً .

---

(١) سورة مريم : الآية ٢٨ .

(٢) القرآن والعلم الحديث ، عبد الرزاق نوفل ، ط ١ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩ : : ١٠١ وما بعدها .

قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

هذه آية من آيات القرآن تبين هيمنته العلمية حتى على غيره من الكتب السماوية وتدحض قول الذين يرمون محمداً ـ ﷺ ـ بأنه استقى معلوماته مما سبقه من الكتب المقدسة من الأحبار والرهبان فهي تقول أن السماء والأرض كانتا قطعة واحدة ثم فصلت احداهما عن الأخرى ، وهذا هو عين ما قاله النظرية الحديثة لتكوين المجموعة الشمسية وفحواها أن المجموعة الشمسية كانت سديماً سابحاً في الفضاء ، كما كانت بقية الأجرام السماوية ثم وقع هذا السديم بطريقة ما تحت تأثير جاذبية جرم كبير من الأجرام السماوية الأخرى فتفككت الأجزاء الخارجية لهذا السديم وامتدت منه أذرع اكتسبت شكلاً حلزونياً من جراء دوران السديم ، وأخيراً انقشع السديم تدريجياً باجتماع الأجسام الصغيرة حول الأجزاء الكبيرة فكانت الكواكب التسعة عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشتري وزحل وأورانس ونبتون وبلوتو والكويكبات التي بين المريخ والمشتري والتي يزيد عددها على الألفين ، هذه هي النظرية الحديثة وهي نفس ما قاله القرآن قبل أربعة عشر قرناً فالأرض كانت جزءاً من سديم عظيم سابح في الفضاء ، ثم تفرق هذا السد يم بعد ذلك إلى أجزاء انفصل بعضها عن بعض فتكونت المجموعة الشمسية بشكلها الحالي الشمس والكواكب والأرض فمن علم محمد هذا ؟ أليس هو العزيز الحكيم علام الغيوب ؟ وكم في القرآن من أسرار ستظل

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٣٠ .

الأيام تفتح مغلقها شيئاً فشيئاً حتى يتبين للناس أنه الحق ، وأن محمداً ﷺ النبي الأمي لم يتعلم هذا عن بشر ولم يسبقه به أحد)[1] .

وبعد أن أوردنا هذه النماذج على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ينبغي أن نؤكد أن ربط النص القرآني بالنظريات العلمية لا يصح إلا بعد أن تصبح هذه النظريات حقائق علمية عامة ، لا يسع أحد إنكارها ، وحينئذ يمكن الاستهداء بها في تفسير النص القرآني ، والتدليل بها على إعجازه العلمي ، لأن حقائق العلم الثابتة لا تعارض النص القرآني .

من هنا ندرك عن يقين أن هذه الآيات التي تحتوى إشارات علمية ونظريات كونية (تكشف للفكر الإنساني المبهور عن المصدر الغيبي الذي تدفقت منه تلك الفكرة بحيث سبقت صور التقدم الإنساني ، واتفقت مع الحقائق التي كشف عنها العلم بعد ذلك بقرون ، وكأنما سبقت هذه الغرائب العقل الإنساني الذي تطور لتكوين طلائع شاهده على السر الأسمى للمعرفة القرآنية)[2] .

العلم الرباني

الإلهام ـ العلم اللدني ـ الفراسة

الإلهام

الإلهام : القاء معنى في القلب بطريق الفيض ــ أي بدون كسب

---

(١) القرآن والعلم ، أحمد محمد سليمان ، طبع بيروت دار العودة ؛ وانظر القرآن والعلم الحديث ، عبد الرزاق نوفل ، بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني : ٣٥٢ ، بحث للأستاذ الدكتور عبد الستار حامد .

(٢) الظاهرة القرآنية لمالك ابن نبي ، طبع القاهرة ، ١٩٥٧ : ٢٨٢ ؛ وانظر الإعجاز القرآني : ٣٥٣ .

ونظر، ويكون بوساطة الملك ويقابله الوسواس بوساطة النفي والشيطان[1].

ومن الإلهام ما أوحى الله إلى أم موسى بقوله تعالى :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴾[2] .

قال القرطبي :

(أوحينا) ألهمنا .

وقيل : أوحى إليها في النوم[3] .

وذكر الرازي ــ للوحي وجوهاً ، منها الإلهام[4] .

وقال الآلوسي :

(المراد بالإيحاء عند الجمهور ما كان بالهام)[5] .

وفسر كثير من المفسرين ــ الإيحاء بقوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾[6] .

فقال الرازي : (يقال وحى ، أوحى ، وهو الإلهام ، والمراد من الإلهام أنه تعالى قرر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر)[7] .

---

(١) شرح النسفية ، د . عبد الملك السعدي : ٣٥ .

(٢) سورة طه : الآية ٣٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١١ /١٩٥ .

(٤) التفسير الكبير للرازي : ٦ /٣٣ .

(٥) تفسير روح المعاني للآلوسي : ٥ /٢٤٨ .

(٦) سورة النحل : الآية ٦٨ .

(٧) التفسير الكبير للرازي : ٥ /٣٢٦ .

وذكر الآلوسي في تفسير هذه الآية أن معنى (أوحى لها)(ألهمها) وألقى في روعها وعلمها بوجه لا يعلمه إلا اللطيف الخبير[1] ، والوحي يكون إلهاماً وإيماء وغير ذلك[2] .

ومنه قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾[3] .

وهو ما يخلقه الله في القلب ابتداءً من غير سبب ظاهر .

ومنه قوله تعالى :

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[4] .

وإن الإلهام الذي يلقيه الملك في النفس لا يكون سبباً من أسباب العلم لعامة الخلق .

ولا يصلح للإلزام عل الغير وذلك لاحتمال كونه من الشيطان فيشتبه الإلهام بالوسواس .

والإلهام لا يكون إلا في الخير ، وقد يحصل الإلهام لبعض الخلق خاصة ، ويحصل له العلم بالنسبة له لا لغيره .

وممن حصل له الإلهام سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ إذ يروى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : ((أنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم ناس محدثون ، وأنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب))[5].

---

(١) تفسير روح المعاني للآلوسي : ٤ /٤٠٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٤ /٨٥ .

(٣) سورة المائدة : الآية ١١١ .

(٤) سورة الشمس : الآية ٧ .

(٥)البخاري في فضائل الصحابة : ٥ /١٥ .

والإلهام ــ أنواع :

منه ما يحصل بالقذف في القلب بلا مباشرة كما كــان لأم موســى ــ عليه الصلاة والسلام ــ بقذف موسى بالتابوت .

ومنه ما يكون في المنام كما كان لإبراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ لذبح ولده ، ومنه ما يكون بواسطة الملك .

قال الإمام الغزالي :

العلم الحاصل بلا دليل يكون ، إما مشاهدة الملك على حقيقتــه وهــو خاص بالأنبياء .

وأما بلا مشاهدة الملك فيسمى (إلهاماً) ويكون للأنبياء والأولياء كما وقع للعبد الصالح مع موسى ، وكما قال سيدنا علي ــ كرم الله وجهــه ــ : (لو وضعت لي وسادة وجلست عليها لحكمت لأهل التوراة بتوراتهم ولأهــل الإنجيل بإنجيلهم ولأهل القرآن بقرآنهم) وهذه مرتبة لا تحصل بمجرد التعلم الإنساني[1] .

ويتضح مما ذكر أن الإلهام سبب من أسباب العلم ولكنه خاص لمــن اختصه الله به حتى البهائم يخلق الله سبحانه وتعالى فيها ما تدرك به منافعها واجتناب مضارها وتدبير معاشها .

القرطبي : هو محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي ، كان إماماً مفسراً علماً من الغواصين على معاني الحديث ، جيد النقل حسن التصانيف ، من مــصنفاته الــشهيرة تفسيره المشهور باسمه ، توفي بمدينة بني خصيب من صعيد مصر سنة ٦٧١ هجرية . شذرات الذهب : ٥ /٣٣٥ .

(١) القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي : ١١٧ .

وقد أخبر الله عن الموات بقوله :

﴿وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[1].

ولا خلاف بين المتأولين أن الوحي هنا : بمعنى (الإلهام)[2] .

قال السيد الجرجاني ــ رحمه الله ــ :

الإلهام ما يلقى في الروع بطريق الفيض ، وقيل : الإلهام ما يقع في القلب من علم وهو يدعو إلى العمة من غير استدلال في آية ولا نظر في حجة[3] .

والإلهام إما أن يكون من قبل الله تعالى وإما من قبل ملائكته يفهم منه أمر أو نهي أو ترهيب أو ترغيب .

أما الذي من قبل الله تعالى ، ما وقع لمريم حينما جاءت إلى شجرة النخل في أيام الشتاء ، فخاطبها بإلهام ووحي من دون واسطة وقال لها: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾[4] .

قال الإمام فخر الدين الرازي ــ رحمه الله تعالى ــ :

(إن ذلك على سبيل النفث في الروع والإلهام والإلقاء في القلب ، كما كان في حق أم موسى ــ عليه الصلاة والسلام ــ في قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ﴾[5] .

---

(١) سورة الزلزلة : الآية ٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٠ /١٣٣ .

(٣) تعريفات السيد الجرجاني : ٢٣ .

(٤) سورة مريم : الآية ٢٥ .

(٥) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي المسمى مفاتيح الغيب : ٢ /٦٩٧ .

وأما الإلهام من قبل الملائكة .

فالملك قد يحدث الإنسان ، قال الإمام الرازي ــ رحمه الله ــ عند تفسير قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[1] .

أعلم أن مريم ــ عليها السلام ــ ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾[2] .

وإذا كان كذلك كان إرسال جبريل كرامة لها وكلمها شفاها وليس هذا خاصاً بها بل هناك كثير من الصالحين كلمتهم الملائكة[3] .

فقد روى أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال :

((أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى فأرصد الله على مدرجه ملكاً فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية ، قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال : لا غير أني أحببته في الله عز وجل ، قال : فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه))[4]

قال العلامة محمد بن علان ألصديقي الشافعي ــ رحمه الله ــ عند قوله :

فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً فلما أتى عليه قال : أين تريد؟

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٤٣ .

(٢) سورة يوسف : الآية ١٠٩ .

(٣) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي : ٢ /٦٦٩ .

(٤) رواه مسلم في صحيحه في كتاب البر ، باب فضل الحب بالله عن أبي هريرة ﷺ .

(ظاهره أن الملك خاطبه وشافهه)[1] .

وقال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾[2] .

قال الآلوسي ــ رحمه الله ــ :

(تتنزل عند الموت والقبر والبعث ، وقيل : تتنزل عليهم يمدونهم فيما يعن ويطرأ لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام وهذا هو الأظهر لما فيه من الإطلاق والعموم الشامل لتنزلهم في المواطن الثلاثة وغيرها .

وأن جمعاً من الناس يقولون بتنزل الملائكة على المتقين في كثير من الأحايين . ثم قال في قوله تعالى :

﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

أي التي كنتم توعدونها في الدنيا على ألسنة الرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ هذا من بشاراتهم في إحدى المواطن الثلاثة .

وقال في قوله تعالى :

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

من بشاراتهم في الدنيا ــ أي أعوانكم في أموركم ، نلهمكم الحق ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم إلى أن قال : (إن الملائكة تقول

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين : ٣ /٢٣٢ .

(٢) سورة فصلت : الآية ٣٢ .

لبعض المتقين شفاهاً في غير تلك المواطن ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا)[1] .

وقال فخر الدين الرازي ــ رحمه الله تعالى ــ في تفسير هذه الآيات :

(ثم أنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم قالوا للمؤمنين : نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ومعنى كونهم أولياء للمؤمنين أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية بالإلهامات والمكاشفات اليقينية والمقامات الحقيقية كما أن للشياطين تأثيرات في الأرواح بإلقاء الوساوس فيها وتخييل الأباطيل إليها .

وبالجملة فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة لأرباب المكاشفات والمشاهدات .

فهم يقولون :

كما أن تلك الولاية حاصلة في الدنيا فهي تكون باقية في الآخرة فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى ، وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة كالشعلة بالنسبة للشمس والقطرة بالنسبة للبحر . والتعلقات الجسمانية هي التي تحول بينها وبين الملائكة . فإذا زالت العلائق الجسمانية والتدبيرات البدنية فقد زال الغطاء والوطاء فيتصل الأثر بالمؤثر والقطرة بالبحر والشعلة بالشمس ، فهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ **نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾[2].

وقد سمى الصوفية العلم الناتج عن الإلهام علماً لَدُنِّياً حاصلاً بمحض

---

(١) روح المعاني للآلوسي : ٧ /٤٩٠ .

(٢) التفسير الكبير للرازي : ٧ /٣٧١ .

فضل الله وكرمه بغير واسطة عبارة .

قال بعضهم :

تعلمتا بلا حرف وصوت قرعناه بلا سهو وفوت

يعني بطريق الفيض الإلهي والإلهام الرباني ، لا بطريق التعليم اللفظي والتدريس القولي)[1] .

وقد سئل الإمام الغزالي عن الإلهام فقد قال :

(الإلهام ضوء من سراج الغيب يسقط على قلب صاف لطيف فارغ).

كل هذا يدل على إمكان الكشف وصحة الإلهام إذا كان القلب صافياً فارغاً من علائق الدنيا وهمومها .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي :

(ذهبت الصوفية إلى أنه إذا حصل للإنسان طهارة النفس في تزكية القلب وقطع العلائق وحسم مواد أسباب الدنيا من الجاه والمال والخلطة بالجنس والإقبال على الله تعالى بالكلية علماً دائماً وعملاً مستمراً ورأى الملائكة وسمع أقوالهم واطلع على أرواح الأنبياء وسمع كلامهم ثم قال ابن العربي : ورؤيا الأنبياء والملائكة وسماع كلامهم ممكن كرامة وللكافر عقوبة)[2] .

فإن طهارة القلب من الذنوب وظلماتها فالشياطين الظلمانية لا تقع إلا على القلوب العفنة كما يقع الذباب على الأواني الوسخة ، فتحجب القلوب عن مطالعة ما حجب عنها يقول - ﷺ - : ((إن الشيطان واضع خطمه على

---

(١) حقائق عن التصوف ، عبد القادر عيسى : ٤٤٥ .

(٢) الحاوي للفتاوى ، للسيوطي : ٢ /٢٥٧ ــ ٢٥٨ .

قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسي التقم قلبه))[1] .

لأن القلب إذا اعتاد الوسوسة والغفلة عن ذكر الله تعالى مرض ... وأما إذا اعتاد الذكر وسقي بأنواره وسطعت عليه شمس تجليات الله تعالى حيي وكان في عداد الأحياء يقول ــ عليه الصلاة السلام ــ :

((مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت))[2].

فإذا واظب المؤمن على ذكر الله تعالى وكان مستقيماً في رعه متحلياً بالتقوى مستأنساً بربه صار حياً بالله .

ويقول القوم :

القلوب نوعان ــ قلب لا يولد ولم يأن له أن يولد بل يظل جنيناً في بطن الشهوات الغي والضلال ، وقلب ولد وخرج إلى فضاء التوحيد وحلق في سماء المعرفة وخلص من ظلمات النفس وشهواتها واتباع هواها فقرت عينه بالله تعالى وأنارت جوانبه أشعة اليقين وجعلته مرآة شفافة لا سبيل للشيطان إليه ، ولا سلطان له عليه ، وليس هذا ببعيد فالطاقة الروحية قد انطلقت إلى عالم الغيب وصار صاحبها حياً بعد أن كان ميتاً ومنوراً بعد أن كان مظلماً ، وملكياً بعد أن كان شيطانياً ، ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾[3] .

ولا شك أن تلك الأسرار الروحية لا تدرك بمجرد الكلام فمن لا نصيب له في شيء منها لا يضره أن يكلها إلى أربابها وأن يعطي القوس

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا ، وابو يعلى ، والبيهقي عن أنس كما في الترغيب والترهيب : ٢/٤٠٠ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الدعوات عن أبي موسى الأشعري : ٨ /١٠٧ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٢٢ .

بأربها)[1] .

فللكثافة أقوام لها خلقوا وللمحبة أكباد وأجفان

وأدنى النصيب من هذا العلم التصديق به وتسليمه لأهله ، واقل عقوبة من ينكره أن لا يرزق منه شيئاً وهو علم الصديقين والمقربين)[2]

العلم اللدني

هو العلم الذي علمه الله تعالى لخاصة عباده ويسمى هذا العلم بالعلم اللدني .

قال تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾[3] .

(أي علماً " لا يكتمه كهنة ولا يقدر قدره وهو علم الغيوب وأسرار العلوم الخفية وذكر (لدنا) قيل : لأن العلم من أخص صفاته تعالى الذاتية وقد قالوا أن القدرة لا تتعلق بشيء ما لم تتعلق الإرادة ... والإرادة لا تتعلق ما لم يتعلق العلم فالشيء يعلم أولاً " فيراد فتتعلق به القدرة فيوجد ، وذكر أنه يفهم من فحوى (من لدنا) أو من تقديمه على (علما) اختصاص ذلك بالله تعالى ، كأنه قيل علماً يختص به ولا يعلم إلا بتوفيقنا في اختبار (علمناه) على (آتيناه) من الإشارة إلى تعظيم أمر هذا العلم لما فيه ، وهذا التعليم يحتمل أن يكون بواسطة الوحي المسموع بلسان الملك وهو القسم

---

(١) وفي إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ، بحث مستفيض في هذا الموضوع في الجزء الثاني ، كتاب شرح عجائب القلب .

(٢) حقائق عن التصوف ، عبد القادر عيسى : ٤٤٧ .

(٣) سورة الكهف : الآية ٦٥ .

وذهب جمهور العلماء إلى أنه كان نبياً ، وعلمه كان وحياً كما ذكر الرازي في التفسير الكبير : ٢ /١٤٨ ــ ١٤٩ .

الأول من أقسام الوحي الظاهري ، كما وقع لنبينا ﷺ في أخباره عن الغيب الذي أوحاه الله تعالى إليه في القرآن الكريم وأن يكون بواسطة الوحي الحاصل بإشارة الملك من غير بيان بالكلام وهو القسم الثاني من ذلك ويسمى بالنفث كما في حديث ((أن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله ..... في الطلب)) [1] .

والإلهام على ما تشير عليه بعض عبارات الصوفية من هذا النوع ويثبتون له ملكاً يسمونه ملك الإلهام ويكون للأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ولغيرهم بالإجماع ، ولهم في الوقوف على المغيبات طرق تتشعب من تزكية الباطن والآية عندهم أصل في إثبات العلم اللدني ، وشاع إطلاق علم الحقيقة والعلم الباطن عليه ، ولم يرتض بعضهم هذا الإطلاق .

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني :

(وأما زبدة علم التصوف الذي وضع القوم فيه رسائلهم فهو نتيجة العمل بالكتاب والسنة فمن عمل بما علم تكلم بما تكلموا وصار جميع ما قالوه بعض ما عنده لأنه كلما ترقى العبد في باب الأدب مع الله تعالى دق كلامه على الإفهام ، حتى قال بعضهم لشيخه أن كلام أخي فلان يدق على فهمه فقال لأن لك قميصين وله قميص واحد وهو أعلى مرتبة منك ، وهذا هو الذي دعا الفقهاء ونحوهم من أهل الحجاب إلى تسمية علم الصوفية بالعلم الباطن وليس ذلك بالباطن ، إذ الباطن هو علم الله تعالى وأما جميع ما علمه

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء : رواه أبو نعيم ، والطبراني عن أبي امامة والبزار عن حذيفة وصححه الحاكم عن ابن مسعود . فتح الباري : ١ /٢٦٢ ؛ وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد : ١ /٢٨٤ ، والسيوطي في الجامع الصغير .

الخلق على اختلاف طبقاتهم فهو من العلم الظاهر لأنه ظهر للخلق)[1] .

وقال الآلوسي :

(والحق أن إطلاق العلم الباطن اصطلاحاً على ما وقفوا عليه صحيح ولا ..... في الاصطلاح ووجهه أنه غير ظاهر على أكثر الناس ويتوقف حصوله على القوة القدسية دون المقدمات الفكرية وإن كان كل علم يتصف بكونه باطناً وكونه ظاهراً بالنسبة للجاهل به والعالم وهذا كإطلاق العلم الغريب على علم الاوفاق والطلسمات والجفر وذلك لقلة وجوده والعارفين به فأعرف ذلك)[2] .

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[3] .

استئذان منه عليه السلام في اتباعه له بشرط التعليم (بهذا الأدب اللائق ينبي يستفهم ولا يجزم من العبد الصالح العالم ولكن علم الرجل ليس هو العلم البشري الواضح الأسباب القريب النتائج ، إنما هو جانب من العلم اللدني بالغيب الذي أطلعه الله عليه بالقدر الذي أراده للحكمة التي أرادها .

ومن ثم فلا طاقة لموسى بالصبر على الرجل وتصرفاته ولو كان نبياً رسولاً ، لأن هذه التصرفات حسب ظاهرها قد تصطدم بالمنطق العقلي وبالأحكام الظاهرة .

ولا بد من إدراك ما وراءها من الحكمة المغيبة وإلا بقيت تأثير الاستنكار ، لذلك يخشى العبد الصالح الذي أوتي العلم اللدني على موسى إلا

---

(١) روح المعاني للآلوسي : ٥ /١٠٠ .

(٢) المَصْدَر نَفْسِه : ٥ /١٠١ .

(٣) سورة الكهف : الآية ٦٦ .

يصبر على صحبته وتصرفاته)[1] .

الفراسة

قال تعالى :

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[2] .

قال ابن عباس :

للناظرين .

وقال جعفر بن محمد :

للمتفرسين .

وقال مجاهد :

للمعتبرين .

وقيل غير ذلك ــ وهي معانٍ متقاربة[3] .

روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رَسُولَ اللَّهِﷺ:((اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله))[4]

ثم قرأ : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ .

وقال مقاتل وابن زيد : للمتوسمين : للمتفكرين .

وقال الضحاك :

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ٥ /١٠٤ .

(٢) سورة الحجر : الآية ٧٥ .

(٣) روح المعاني للآلوسي : ٤ /٣٢٢ .

(٤) رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري في كتاب التفسير : ٥/ ٢٩٨ . قال أبو عيسى هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه وقد روي عن بعض أهل العلم وتفسير هذه الآية إن في ذلك لآيات للمتوسمين قال للمتفرسين .

للناظرين .

قال الشاعر[1] :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى عريفهم يتوسم

وقال قتادة :

للمعتبرين .

وقال أبو عبيدة :

للمتبصرين ــ وهو متقارب أيضاً .

وروى الترمذي من حديث ثابت عن أنس بن مالك قال : قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : ((إن لله عز وجل عباداً يعرفون الناس بالتوسم))[2] .

قال العلماء :

التوسم ــ تفعل من الوسم ، وهي العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها .

يقال : توسمت فيه الخير إذا رأيت ميسم ذلك فيه .

ومنه قول عبد الله بن رواحة للنبي ﷺ :

إني توسمت فيك الخير أعرفه والله يعلم أني ثابت البصر

ويقول آخر :

توسمت لما رأيت مهابة عليه فقلت المرء من آل هاشم

وأتمم الرجل إذا جعل لنفسه علامة يعرف بها ، وتوسم الرجل طلب كلاء الوسمي وأنشد :

---

(١) طريف بن تميم العنبري (عن شواهد سيبويه) .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط : ٢٠٧/٣ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : ٢٦٨/١٠ إسناده حسن .

وأصبحنا كالدوم الدواعم غدوة على وجهة من ضاعن متوسم

وقال ثعلب :

الواسم الناظر إليك من فرقك إلى قدمك واصل التوسم والتثبت والتفكر مأخوذ عن الوسم وهو التأثير بحديدة في جلد البعير وغيره ، وذلك يكون بجودة القريحة وحدة الخاطر وصفاء الفكر ، زاد غيره وتفريغ القلب من حشو الدنيا وتطهيره من أدناس المعاصي وكدورة الأخلاق ، وفضول الدنيا .

وقالت الصوفية :

إنها كرامة .

وقيل: بل هي استدلال بالعلامات ومن العلامات ما يبدو ظاهراً لكل أحد وبأول نظرة ، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكل أحد ولا يدرك ببادئ النظر .

قال الحسن:

المتوسمون هم الذين يتوسمون الأمور فيعلمون أن الذي أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار ، فهذا من الدلائل الظاهرة .

ومثله قول ابن عباس :

ما سألني أحد عن شيء إلا عرفت أفقيه هو أو غير فقيه .

وروى عن الشافعي ، ومحمد بن الحسن :

(أنهما كانا بفناء الكعبة ورجل على باب المسجد فقال أحدهما : أراه نجاراً ، وقال الآخر : بل حداداً ، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال : كنت نجاراً وأنا اليوم حداد)[1] .

وروى عن جندب بن عبد الله البجلي :

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٣ /١١٣١ ؛ والقرطبي : ١٠ /١٤٠ .

أنه أتى على رجل يقرأ القرآن فوقف فقال : من سمع سمع الله به ومن رأى رأى الله به ، فقلنا كأنك عرضت بهذا الرجل ، فقال : أن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم ويخرج غداً " حرورياً " فكان رأس الحرورية واسمه مرداس .

وروى عن الحسن البصري :

أنه دخل عليه عمر بن عبيد فقال : هذا سيد فتيان البصرة إن لم يحدث كان أمره من المقدر ما كان حتى هجره عامة إخوانه .

وروى عن الشعبي أنه قال لداود الأسدي وهو يحاربه : أنك لا تموت حتى تكون في رأسك وكان ذلك .

وروى أن عمر بن الخطاب ﷺ دخل عليه قوم من مذحج فيهم الأشتر فصعد فيه النظر وصوبه وقال : أيهم هذا قالوا : مالك بن الحارث ، فقال : ماله قاتله الله إني لأرى المسلمين منه يوماً عصيباً ، فكان منه في الفتنة ما كان[1] .

وروى عن عثمان بن عفان ﷺ أن أنس بن مالك دخل عليه وكان قد مر بالسوق فنظر إلى امرأة فلما نظر إليه عثمان قال : يدخل أحدكم علي وفي عينه اثر الزنا .

فقال له أنس أوحياً بعد رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فقال : لا ولكن برهان وفراسة وصدق[2] .

ومثله كثير من الصحابة والتابعين ــ رضي الله عنهم ــ[3] .

قال أبو بكر بن العربي :

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي : ١ /١٤٣ .

(٢) حجة الله على العالمين للنبهاني : ٨٦٢ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٠ /٤٢ .

(إذا اثبت أن التوسم والتفرس من مدارك المعاني فإن ذلك لا يترتب عليه حكم ولا يؤخذ به موسوم ولا متفرس) .

وقد كان قاضي القضاة الشامي المالكي ببغداد ـــ يحكم بالفراسة في الأحكام جرياً " على طريق إياس بن معاوية أيام كان قاضياً " وقد رد عليه أبو بكر الشاشي لأن تدارك الأحكام معلومة شرعاً ومدركة قطعاً وليست بالفراسة[1] .

(والفراسة في اصطلاح أهل الحقيقة هي مكاشفة اليقين أو معاينة الغيب)[2] .

قال ابن عجيبة ـــ رحمه الله تعالى ـــ :

(الفراسة هي خاطر يهجم على القلب ووارد يتجلى فيه ، لا يخطئ غالباً إذا صفا القلب ، وهي على حسب قوة القرب والمعرفة ، فكلما قوى القرب وتمكنت المعرفة صدقة الفراسة ، لأن الروح إذا قربت من حضرة الحق لا يتجلى فيها غالباً إلا الحق)[3] .

يقول العلامة ابن خلدون ـــ رحمه الله تعالى ـــ :

(ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس والإطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها والروح من تلك العوالم ، وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجح عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوؤه وأعان مع ذلك الذكر فإنه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٣ /١١٣١ .

(٢) تعريفات السيد الجرجاني : ١١٠ .

(٣) معراج التشوف إلى حقائق التصوف لابن عجيبة : ١٨ .

نمو وتزايد إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً ويكشف حجاب الحس ويتم صفاء النفس الذي لها من ذاتها وهو حين الإدراك ، فيعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي)[1] .

وقد وقعت الفراسة لكثير من الصحابة زيادة على ما ذكر فوقعت لأبي بكر الصديق ﷺ ، فعن عروة ، عن أبيه ــ رضي الله عنهما ــ ، عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أن أبا بكر لما حضرته الوفاة دعاها فقال :

إنه ليس في أهلي بعدي أحد أحب إلي غنى منك ولا أعز علي فقراً " منك وأني كنت نحلتك من أرض بالعالية جداة عشرين وسقاً " فلو كنت جددته تمراً " عاماً " واحداً " انحاز لك وإنما هو مال موروث وإنما هما أخواك وأختاك فقلت إنما هي أسماء .

فقال :

وذات بطن أمه خارجة قد ألقي في روعي أنها ، جارية فاستوصى بها خيراً فولدت أم كلثوم[2] .

وأخرج ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال :

(إن كان الرجل ليحدث عمر بالحديث فيكذبه الكذبة فيقول : احبس هذه ، ثم يحدثه بالحديث فيقول : احبس هذه ، فيقول له : كل ما حدثتك حق إلا ما أمرتني أن احبسه)[3] .

وعن أبي سعيد الخراز ــ رحمه الله تعالى ــ قال :

دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيراً " عليه خرقتان فقلت في نفسي هذا

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٣٢٩ .

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ، ذكر وصية أبي بكر : ٣ /١٥٩ .

(٣) تاريخ الخلفاء ، للسيوطي : ١٢٧ .

وأشباهه كل على الناس ، فناداني وقال :

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾[1] .

فاستغفرت الله في سري فناداني وقال :

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾[2] ، ثم غاب عني ولم أره[3] .

وحكي عن إبراهيم الخواص ــ رحمه الله تعالى ــ قال :

(كنت في بغداد في جامع المدينة ، وهناك جماعة من الفقراء ، فاقبل شاب ظريف طيب الرائحة حسن الحرمة ، حسن الوجه ، فقلت لأصحابنا : يقع لي أنه يهودي ، فكلهم كرهوا ذلك ، فخرجت وخرج الشاب، ثم رجع إليهم وقال :

ايش قال الشيخ ؟ فاحتشموه ، فألح عليهم فقالوا : قال : أنه يهودي قال: فجاءني وأكب على يدي وأسلم ، فقيل ما السبب ؟ قال : نجد في كتابنا أن الصديق لا تخطئ فراسته فقلت : امتحن المسلمين ، فتأملتهم فقلت :

إن كان فيهم صديق ففي هذه الطائفة لأنهم يقولون حديثه سبحانه فلبست عليهم ، فلما أطلع علي وتفرس فِيَّ علمت أنه صديق فصار الشاب من كبار الصوفية)[4] .

ولا عجب في ذلك فقد أخبر عن هذا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بقوله : ((إن لله

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٣٥ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٢٥ .

(٣) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي : ٣ /٢١ .

(٤) الرسالة القشيرية للإمام القشيري : ١١٠ .

عباداً يعرفون الناس بالتوسم)[1] .

فالفراسة أمر جائز الوقوع وهي منحة إلهية يكرم الله تعالى عباده الصالحين الذين تمسكوا بدينهم وحفظوا جوارحهم وصقلوا قلوبهم وهذبوا نفوسهم .

قال المناوي :

قاعدة الفراسة وأساسها ـ الغض عن المحارم .

قال الكرماني :

(من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وكف نفسه عن الشهوات وغض بصره عن المخالفات واعتاد أكل الحلال ، لم تخطئ فراسته أبداً فإن وفق لذلك ابصر الحقائق عياناً بقلبه)[2] .

---

(١) مجمع الزوائد : ١٠ /٢٦٨ ؛ رواه البزار والطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك وإسناده حسن .

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ، للمناوي : ٢ /٥١٥ .

الفصل الثاني

منهج الوصول إلى الحقائق العلمية في القرآن الكريم

تمهيد

المبحث الأول : طريقة القرآن في الوصول إلى الحقيقة العلمية

المبحث الثاني : طريقة العلم في الوصول إلى الحقيقة العلمية

خاتمة

أوجه التشابه بين طريقة القرآن الكريم وطريقة العلم

تمهيد

قال تعالى :

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[1] .

إن هذه الآية الكريمة تنهى الإنسان المسلم أن يجري مجرى الوهم أو الظن وتدله من ناحية أخرى عن طريق الوصول إلى ما ليس بوهم ولا ظن أي إلى اليقين والحق عن طريق استعمال السمع والبصر والعقل استعمالاً " حسناً " لأن :

(أصل القفو البهت والقذف بالباطل يسأل الله سبحانه وتعالى ، كل واحد عما اكتسب فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه واعتقده ، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع المعنى العام أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده) [2] .

وقد أمر سبحانه وتعالى بالاستمساك به يهتدي إليه الإنسان من الحق عن طريق السمع والبصر والفؤاد ففي هذه الآية وحدها ثلاثة أصول هي :

جماع أصول النظر العلمي :

أولهما : أن لا يتبع الإنسان إلا الحق المعلوم يقيناً .

وثانيهما : أن طريق الوصول إلى الحق هو المشاهدة الصحيحة والتفكير الصحيح .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٣٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٠ /٢٥٩ .

وثالثها : أن على الإنسان أن يستمسك بنا يصل إليه من الحق عن طريق المشاهدة والتفكير .

على أن علم الإنسان كله مصدره العقل والمشاهدة الصحيحة، بل إن العقل لا يقوى ولا ينمو إلا عن طريق التجارب والمشاهدات ، فلو أخذ طفل وحبس عن العالم إلا في ما يكفي لحياته من طعام وشراب فإنه وإن نما جسمه حتى يبلغ جسم الرجال لا ينمو عقله عن عقل الطفولة بهذا يقول علماء التربية وإلى هذا تشير الآية ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[1] .

فهذه الآيات الكريمة صريحة في أن ما يحصل عليه الإنسان من علم بعد أن يولد إنما يكسبه عن طريق السمع والبصر وبقية الحواس[2] .

فمنهج العلم في القرآن الكريم هو منطق النظر والاستقراء أي هو المنهاج الصحيح في لغة العلم الحديث وهو يقوم على المشاهد والبرهان الحسي والتفكير المنظم المبني على الواقع ، أي على الحقيقة الخارجية .

فالقرآن الكريم حافل بالآيات التي تأمرنا بالنظر في الظواهر المحيطة بنا وتحضنا على استخدام العقل والحواس معاً والتأمل في

---

(١) سورة النحل : الآية ٧٨ .

(٢) الإسلام في عصر العلم ، محمد أحمد الغمراوي : ٤١ .

ملكوت الله وقد سفه القرآن التقليد والإذعان[1] .

وجرى الخلف وراء السلف دون نظر أو برهان ، قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2] .

وهذا ما سنبينه تفصيلاً من أجل الوصول إلى الحقائق العلمية في القرآن الكريم وأن طريقة العلم هي الطريقة نفسها التي بينها القرآن الكريم.

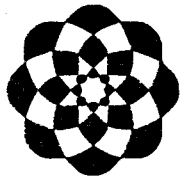

(١) مكانة العلم ومنهاجه ومجالاته في القرآن الكريم ، السيد علي السيد : ١٤ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٧٠ .

المبحث الأول

طريقة القرآن في الوصول إلى الحقائق العلمية

الأول : أمر القرآن الإنسان بعدم قبول الشيء على أنه حق إلا بعد إقامة البرهان عليه ، يتمثل ذلك مثل قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١) .

والبرهان هو الدليل الذي يوقع اليقين قال الطبري :

طلب الدليل هنا يقضي إثبات النظر ويرد على من ينفيه(٢) .

وقال أبو العالية ، ومجاهد ، والربيع بن أنس :

برهانكم : حجتكم .

وقال قتادة : بينتكم(٣) .

وقوله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَ تَخْرُصُونَ ﴾(٤) .

رد الله سبحانه وتعالى على شبهة المشركين التي تشبثوا بها في هذه المناظرة وهي حجة داحضة باطلة لأنها لو كانت صحيحة

---

(١) سورة البقرة : الآية ١١١ .

(٢) الجامع حكام القرآن للقرطبي : ٢ /٧٥ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٢ /١٥٤ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٤٨ .

لما أذاقهم الله باسه ودمر عليهم[1] .

فتجد أن القرآن الكريم طالبهم بالدليل أي أعندكم دليل على أن هذا كذا[2] .

والعلم المقصود هنا :

هو الحق اليقيني الثابت بالحجة القاطعة ، بدليل عيبه عليهم إنزال الظن والتخمين منزلة الحجة واليقين[3] .

الثاني : أن القرآن الكريم يفرق في المنزلة بين ما هو حق ويقين ، وبين ما هو ظن وتخمين فلا ينزل الظن منزلة اليقين ويتضح هذا من طريقته المتجلية في كل آياته ، مثل قوله تعالى :

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى إِنْ هِيَ إِلاَ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءهمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾[4] .

فيرد الله سبحانه وتعالى على اتباعهم الظن ، فبتسميتهم لهذه الأصنام وجعلهم أسماءً لها ما هو إلا توهم أن ما هم عليه حق توهماً باطلاً ، فالظن في هذه الآية مراد به التوهم[5] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٢ /١٨٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٧ /١٢٨ .

(٣) الإسلام في عصر العلم ، د . محمد أحمد الغمراوي : ٤٨ .

(٤) سورة النجم : الآية ١٩ ــ ٢٣ .

(٥) روح المعاني للآلوسي : ٨ /٢٥٨ .

وأن هذا التوهم لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق[1] .

ومثل قوله تعالى :

﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَ يَظُنُّونَ** ﴾[2] .

فيبين الله سبحانه وتعالى أن حجتهم هي الظن والتقليد وما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يكون لهم شيء يصح ويتمسك به في الجملة هذا معتقدهم الفاسد في أنفسهم[3] .

ومثل قوله تعالى :

﴿ **وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** ﴾[4] .

وما يتبع أكثرهم في إقرارهم بالله تعالى إلا ظناً لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم بل سمعوه من أسلافهم[5] .

الثالث : أن القرآن الكريم يمنع التقليد الأعمى ويشدد النكير على الذين يستمسكون بالرأي وليس لهم حجة إلا أن آباءهم فعلوا ، ويتضح ذلك في مثل قوله تعالى :

﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا**

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٤ /٢٥٥ .

(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٤ .

(٣) تفسير أبي السعود العمادي : ٥ /٦٠ .

(٤) سورة يونس : الآية ٣٦ .

(٥) التفسير الكبير للرازي : ٤ /٥٦٨ .

عَلَيْهِ آبَاءنَا أَولَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾[1] .

وقوة ألفاظ هذه الآية تعطي إبطال التقليد وتعلق قوم بهذه الآية في ذم التقليد لذم الله تعالى الكفار باتباعهم لآبائهم في الباطل وإقتدائهم بهم في الكفر والمعصية وهذا في الباطل صحيح ... أما التقليد في الحق فأصل من أصول الدين وعصمة من عصم المسلمين يلجأ إليها الجاهل المقصر من درك النظر[2] .

أما التقليد في مسائل الأصول فللعلماء فيه خلاف أما في مسائل الفروع فصحيح ، ونظيره هذه الآية قوله تعالى :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَولَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾[3]

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾[4] .

أي انهم لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية بل اعترفوا بأنهم لا سند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم[5] .

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٢ /٢١١ .

(٣) سورة المائدة : الآية ١٠٤ .

(٤) سورة الزخرف : الآية ٢٢ ــ ٢٣ .

(٥) تفسير أبي السعود العمادي : ٥ /٤٢ .

شدد القرآن الكريم في النهي عن التقليد الأعمى وهو الأخذ بالرأي من غير دليل أو رغم الدليل متابعة لزيد أو لبكر من الناس ودعا إلى تحكيم العقل في كل ما يعرض للإنسان من أمر من أجل الوصول إلى الحقيقة .

الرابع : ان القرآن الكريم يؤكد على عدم تناقض الحقائق كما يؤكد على اطراد الفطرة واستقلالها فأصل توافق الحقائق واستحالة تناقضها ثابت قرآنياً من الآيات الكثيرة الواردة في هذا المجال ويزداد ثبوتاً بقوله تعالى :

﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾(١) .

أي بل هو مصطحب مستوى ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخافة ولا نقص ولا عيب ولا خلل(٢) .

وأصل اطراد الفطرة ثابت قرآنياً في مثل آية الأحزاب :

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾(٣) .

وآية فاطر :

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَ سُنَّةَ الأوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾(٤) .

وآية الروم :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا

---

(١) سورة الملك : الآية ٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٤ /٣٩٦ .

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٦٢ .

(٤) سورة فاطر : الآية ٤٣ .

لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

فهذه آيات صريحة لاطراد الفطرة وبقاء سنن الله فيها على الزمان كله من غير تحويل ولا تبديل ، والفطرة وسننها تشمل كل ما وجد في ملكوت الله سواء في ذلك ما تعلق بغير الإنسان من جماد ونبات وحيوان ، أو ما تعلق بالإنسان من ناحية النفس والروح في الفرد والجماعة[2] .

الخامس : ان القرآن الكريم يأمر بالمشاهدة واستعمال السمع والبصر والعقل في آيات كثيرة منها :

١ــ استعمال البصر مع العقل :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3] .

وقوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾[4] .

وقوله تعالى :

﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾[5] .

٢ــ استعمال السمع مع العقل :

---

(١) سورة الروم : الآية ٣٠ .

(٢) الإسلام في عصر العلم ، محمد أحمد الغمراوي : ٣٧ .

(٣) سورة العنكبوت : الآية ٢٠ .

(٤) سورة تبارك : الآية ١٩ .

(٥) سورة الغاشية : الآية ١٧ ــ ١٨ .

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

٣ــ استعمال السمع والبصر مع العقل :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[2] .

وقوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3] .

٤ ــ استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل :

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾[4] .

---

(١) سورة الحج : الآية ٤٦ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٧٩ .

(٣) سورة النحل : الآية ٧٨ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ١٨٥ .

المبحث الثاني

طريقة العلم في الوصول إلى الحقائق العلمية

من أجل الوصول إلى الحقيقة العلمية الثابتة فإن العلم وضع قواعد ثابتة لإقامة البراهين والأدلة القطعية المسلم بها فيتبين من خلال استقراء طريقة العلم ما يأتي :

الأول : (أن العلم لا يقول عن شيء أنه حق إلا إذا أقام عليه البرهان اليقيني القاطع) .

الثاني : (أن العلم يحاذر كل المحاذرة أن يجعل يقيناً ما ليس بيقين وأن ينزل الظن منزلة اليقين وأن ينزل الفرض والتخمين منزلة الظن والترجح فهو يقيس مقدار اقتراب القضية من الحق بمقدار متانة الحجة التي تشهد لها . فإذا كانت الحجة قاطعة فالقضية حق ، وإذا كانت الحجة غير قاطعة فالقضية ظن ، ويسميها العلم في هذه الحالة (نظرية) إذا كان أرجحيتها كبيرة إذ الواضح أن هناك في الرجحان مراتب بعضها أرقى من بعض أما إذا تساوى ما يشهد للقضية وما يشهد عليها فتلك هي القضية المجهولة التي وقعت موقعاً وسطاً بين الحق والباطل لا يدري أيهما أقرب وأمثال هذه القضية وما قبلها من القضايا الواقعة في منطقة الرجحان قل حظها منه أو كثر في موضع النظر العلمي والبحث .

لا يزال العلم يبحث عنها ويمحصها حتى ينتهي فيها إلى حكم قاطع فيلحقها أما بالحق اليقيني وأما بالباطل اليقيني) [1] .

(١) الإسلام في عصر العلم ، د . محمد أحمد الغمراوي : ٣٣ .

الثالث : أن العلم يمنع التقليد في النظر من غير وقوف على الدليل واقتناع به ، والعلم الحديث يخالف العلم قديماً في هذا ، لأن العلماء قديماً لا سيما في القرون الوسطى كانوا كثيراً ما يقنعون في الاستدلال على الصحة أو البطلان بإثباتها أن القضية توافق أو تخالف رأي فلان أو علان من المشاهير .

فكان ما يثبت عن ارسطو مثلاً يتخذ حجة قاطعة في موضوعه من غير أن ينظر في رأي ارسطو هذا في ذاته ، ومن غير أن يسأل ما هو دليل ارسطو؟ .

وكان هذا متبع شر كبير ولعله سبَّبَ كثيراً من الشُبَه الكلامية التي قامت بين علماء المسلمين بعد أن تُرْجِمَتْ كتب اليونان في العصر العباسي فيما يتعلق بالعلاقة بين الشريعة وبين ما يسمونه (الحكمة) . يريدون بالحكمة غالباً ما أخذوه عن حكماء اليونان مثل : (أفلاطون) و (ارسطو) واضرابهما . حتى جاء أمثال الغزالي من المسلمين فوضعوا الأمر في نصابه .

الرابع : أن العلم في تطبيقه قوانين التفكير المجموعة في علم المنطق القياسي يتخذ أصلين اثنين يبنى عليهما :

أـ أنه لا تناقض مطلقاً بين الحقائق ، فليس من الممكن أن ينقض حق حقاً ، فما يُنْقَضُ حقاً إذا فهو باطل وهذا يصح أن يسمى بأصل توافق الحقائق .

ب ـ أصل اطِّراد الفطرة واستقلالها فما ثبت أنه حق في وقت ما سيكون دائماً حقاً ، أو بعبارة أخرى أن الحق مستقل عن الزمان والمكان وليس عند العلم برهان على هذين الأصلين إلا تجاربه

الماضية فإنه لم يشاهد مطلقاً أن قضية حقيقية نقضت أخرى حقيقية أي لم يشاهد مطلقاً تناقضاً بين حقائق العلم سواء اكتشفت تلك الحقائق ، في الماضي أم في الحاضر في الأرض أم في كوكب خر بل كثير من حقائق العلم إنما ستنتج بناء على هذين الأصلين أصل توافق الحقائق أو امتناع التناقض بينهما ، واصل اطراد الفطرة ، وكانت التجربة دائماً تؤيد الاستنتاج[1] .

الخامس : أن العلم في بحثه عن الحقيقة يسلك سبيل العقل فلا يعد حقاً إلا ما قام البرهان على أنه حق فالعلم دائب البحث إذاً عن البراهين التي تثبت حقائق الأشياء هذه البراهين من أنواعها :

النوع القياسي ــ أي الذي يتوصل إليه بالقياس الصحيح وإنما يؤدي إلى نتيجة صحيحة إذا صحت المقدمتان كلتاهما ، أما إذا كانت إحداهما باطلة أو مشكوكاً فيها فإن النتيجة يصيبها من البطلان أو الشك مثل ذلك وإن صحت طريقة الاستنتاج وبعبارة أخرى يلزم لصحة النتائج شرطان : صحة المقدمات كلها ، وصحة طريقة الاستنتاج فقد تكفل بها المنطق القياسي لكن المقدمان وما شائها ؟ وما طريق التثبت من صحتها ؟

كثير من المقدمات ناتج عن طريق القياس من مقدمات أولية بديهية الصحة لا يختلف في صحتها العقلاء ويصلون إليها مستقلاً بعضهم عن بعض وعلم الهندسة النظرية على تعقد نظرياته مستنتج كله من أمثال هذه البديهيات لكن ليس كل المقدمات يمكن ردها إلى بديهيات كهذه عند إثبات صحتها ، ولا بد إذن من إثبات صحة هذا النوع الثاني عن طريق آخر غير

---

(١) الإسلام في عصر العلم : ٣٥ ــ ٣٦ ــ ٣٧ .

طريق الاستنتاج من البديهيات هذا الطريق الآخر هو : طريقة المشاهدة الصحيحة :

وهو الطريق الذي سلكه إلى حد ما العلم قديماً ويسلكه دائماً العلم حديثاً حتى صار طابعه الذي طبع عليه وميزته التي امتاز بها هذه المشاهدة العلمية تستعمل فيها الحواس لا سيما السمع والبصر لكن بشرط تربيتها وتدريبها من ناحية وإعانتها على دقة الملاحظة بالآلات الدقيقة من ناحية أخرى ... هذه الآلات في الواقع وسائل هدى الله إليها الإنسان ليزيد في مدى حسه فيزيد في مدى إبصاره مثلاً بالمجاهر (المكروسكوبات) التي يستطيع أن يرى الإنسان بها من الأجسام ما صغر حتى دق عن أن تبصره العين المجردة كالجراثيم وكريات الدم وخلايا الأجسام الحية أو يزيد في مدى إبصاره بالمراقب (التلسكوبات) التي تقرب للإنسان الأجسام البعيدة[1] .

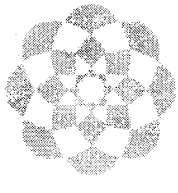

(١) المصدر السابق : ٣٨ .

الخاتمة

أوجه التشابه بين طريقة القرآن الكريم وطريقة العلم في الوصول إلى الحقيقة العلمية

١ــ أن طريقة العلم في إقامة البرهان اليقيني للوصول للحقيقة هي طريقة القرآن نفسها ، فالقرآن يأمر بإقامة البراهين لإثبات حقائق الأشياء ، فالعلم لا يقول عن شيء أنه حق إلا بالبرهان، والقرآن كذلك يأمر بأن لا يقبل الإنسان شيئاً على أنه حق إلا إذا قام عليه برهان .

٢ــ العلم يفرق في المنزلة بين ما هو حق وما هو دون الراجح، فلا يجعل اليقيني ما ليس بيقيني ، ولا ينزل الظن منزلة اليقين فهو يتفق تماماً من روح القرآن الكريم في النظر .

٣ــ أن العلم يمنع التقليد الأعمى بدون دليل واقتناع به فهو يتفق تمام الاتفاق مع القرآن الكريم الذي شدد النكير على الذين يستمسكون بالرأي اتباعاً لآبائهم .

٤ــ أن العلم في تطبيقه قوانين التفكير يتخذ أصلين هما :

عدم التناقض بين الحقائق وأصل اطراد الفطرة واستقلالها فهذان الأصلان اللذان يستمسك بهما العلم هما أصلان قرآنيان أكدهما منزل القرآن ، فأصل اطراد الفطرة ثابت قرآنياً ، واصل توافق الحقائق واستحالة تناقضها ثابت قرآنياً أيضاً كما مر بنا في الآيات المذكورة .

٥ــ العلم يعتمد في بحثه عن الحقيقة على أصل المشاهدة الصحيحة ، فالمشاهدة هي الطريق الذي يسلكه العلم الطبيعي

للوصول إلى مقدمات صحيحة ، فالمشاهدة أصل علمي عظيم وهي أيضاً أصل قرآني عظيم ، فالآيات تأمر بالمشاهدة واستعمال السمع والبصر والعقل كثير في القرآن .

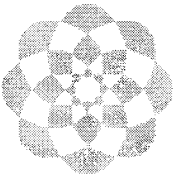

الفصل الثاني

العلماء في القرآن الكريم

المبحث الأول : فضيلة التعلم ووجوب طلب العلم

المبحث الثاني : صفات العلماء

المبحث الثالث : وجوب الاستفادة بالعلماء

والقرآن الكريم

المبحث الأول

فضيلة التعلم ووجوب طلب العلم

لقد حث الْقُرْآن الْكَرِيم على العلم والتفقه فيه ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ **فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾[1] .

لقد وردت روايات متعددة في تفسير هذه الآية وتحديد الفرقة التي تتفقه وتنذر قومها إذا رجعت إليهم ، وقد جمعها ابن العربي في كتابه أحكام القرآن[2] ، في أربعة أقوال :

الأول : إنها نزلت في قوم أرسلهم النبي ﷺ ليعلموا الناس القرآن والإسلام فلما نزلت ﴿ **مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ رجع أولئك ، فأنزل الله عذرهم قاله مجاهد وقال :

هلا جاء بعضهم وبقي على التعليم البعض .

الثاني : قال ابن عباس :

معناه : أكان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا نبيهم ولكن يخرج بعضهم ويبقى البعض فيما ينزل من القرآن ويجري من العلم والأحكام يعلمه المتخلف للساري عند رجوعه ، وقاله قتادة .

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٢٢ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي : ٢ /١٠٣٠ .

الثالث : قال ابن عباس أيضاً :

أنها نزلت في الجهاد ولكن لما دعا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ على مضر بالسنين، أجدبت بلادهم فكان القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحل بالمدينة من الجهد ويعلنوا بالإسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وأجهدوهم فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا بمؤمنين فردهم رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم فذلك قوله :

﴿ **وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ** ..... ﴾ .

الرابع : روي عن ابن عباس أنه قال :

نسختها ﴿ **انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً** ﴾[1] .

وقد نوقشت هذه الأقوال على النحو التالي :

أما نسخ بعض هذه لبعض فيفتقر إلى معرفة التأريخ فيها أي أيهما سبق نزولاً .

وأما الظاهر : فنسخ الاستنفار العام ــ لأنه الطارئ فإن النبي ﷺ كان يغزو في فئام[2] من الناس ولم يستوف قط جميع الناس إلا في غزوة العسرة، وقد قيل أنه يخرج من القول الأول أن الخروج في طلب العلم لا يلزم بالأعيان وإنما هو الكفاية .

قال القاضي[3] :

إنما يقضي ظاهر هذه الآية الحث على طلب العلم والندب إليه دون الإلزام والوجوب واستحباب الرحلة فيه وفضلها ، فأما الوجوب فليس في قوة

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٢ /١٣١ .

(٢) فئام : جماعة .

(٣) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي .

الكلام وإنما لزم طلب العلم بأدلته ، فأما معرفة الله فبأوامر القرآن وإجماع الأمة ، وأما معرفة الرسول فلوجوب الأمر بالتصديق به ولا يصح التصديق إلا بعد العلم وأما معرفة الوظائف فلأن ما ثبت وجوبه ثبت وجوب العلم به الاستحالة أدائها إلا بعلم ثم ينشأ على هذا أن المزيد من الوظائف مما فيه القيام ووظائف الشريعة . كتحسين الحقوق وإقامة الحدود والفصل بين الخصوم ونحوه من فروض الكفاية إذ لا يسمح أن يعلمه جميع الناس فتضيع أحواله وأحوال سواهم وينقص أو يبطل معاشهم فتعين بين الحالين أن يقوم به البعض من غير تعيين وذلك بحسب ما ييسر الله العباد له ويقسمه بينهم من رحمته وحكمته بسابق قدرته وكلمته .

والطائفة في اللغة ــ هي الجماعة ولا شك أن المراد هاهنا الجماعة لوجهين أحدهما عقلاً والآخر لغةً .

أما العقل :

فلأن تحصيل العلم لا يتحصل بواحد في الغالب .

وأما اللغة :

فلقوله (ليتفقهوا) و (لينذروا) فجاء بضمير الجماعة[1] .

وقد ذكر صاحب الظلال :

(إن المؤمنين لا ينفرون كافة ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون لتتفقه هذه الطائفة في الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة ، وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم بما رأته وما فقهته من هذا الدين في أثناء الجهاد والحركة

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٢ /١٣١ .

ولهذا أصل من تأويل ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ .

ومن تفسير الحسن البصري واختيار ابن جرير ، وقول لابن كثير أن هذا الدين منهج حركي لا يفقهه إلا من يتحرك به فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه ، بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه وبما يتجلى لهم آياته وتطبيقاته العملية في أثناء الحركة به أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا ، لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا ولا فقهوا فقههم ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون ولا سيما إذا كان الخروج مع رَسُولَ اللَّه ﷺ والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والتفقه .

ولعل هذا عكس ما يتبادر إلى الذهن من أن المتخلفين عن الغزو والجهاد والحركة وهم الذين يتفرغون للتفقه في الدين : ولكن هذا وهم لا يتفق مع طبيعة هذا الدين أن الحركة هي قوام هذا الدين ، ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به ، ويجاهدون لتقريره في واقع الناس وتغليبه على الجاهلية . بالحركة العملية)[1] .

وقال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[2] .

فسر علي ــ كرم الله وجهه ــ وابن عباس ، الرباني :

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ١١ /٧٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٧٩ .

بالفقيه العالم .

وقتادة والسدي : بالعالم الحكيم .

وابن جبير : بالحكيم التقي .

وابن زيد : بالمدبر أمر الناس .

وهي أقوال متقاربة وهو لفظ عربي لا سرياني .

وزعم أبو عبيدة ــ أن العرب لا تعرفه ... وهو منسوب إلى الرب فكونوا ربانيين بمثابرتكم على تعليمكم الكتاب دراستكم له والمطلــوب أن لا ينفك العلم عن العمل إذ لا يعتد أحدهما دون الآخر[1] .

وقال المبرد : الربانيون :

أرباب العلم واحدهم ربان من قولهم ربه ، يربه ، فهو ربان إذا دبــره وأصلحه فمعناه على هذا يدبرون أمور الناس ، ويصلحونها فمعنى الرباني : العالم بدين الرب الذي يعمل بعلمه لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم.

وقال الضحاك :

لا ينبغي لأحد أن يدع حفظ القرآن جهده ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ **وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ** ﴾ .

وقال أبو عبيدة :

سمعت عالماً يقول : الرباني ــ العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي العارف بأنباء الأمة وما كان وما يكون .

وقال محمد بن الحنفية يوم مات ابن عباس :

(اليوم مات رباني هذه الأمة) .

---

(١) تفسير روح المعاني للآلوسي : ١ /٦١٧ .

وروى عن النبي ﷺ أنه قال :

((ما من مؤمن ذكر ولا أنثى حر ولا مملوك إلا ولله عز وجل عليه حق أن يتعلم من القرآن ويتفقه في دينه ثن تلا هذه الآية))[1] .

قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[2] .

قال ابن عباس في هذه الآية :

هم الفقهاء والعلماء أهل الدين يعلمون الناس دينهم أوجب الله تعالى طاعتهم وهذا هو قول مجاهد ، والحسن ، والضحاك ، وإحدى الروايتين عن أحمد[3] .

وقال جابر بن عبد الله ومجاهد :

أولوا الأمر : أهل القرآن والعلم وهو اختيار مالك ـ رحمه الله ـ ونحوه قول الضحاك قال :

يعني الفقهاء والعلماء في الدين[4] .

وقال ابن قيم الجوزية :

وفسروا بالأمراء والآية تتناولهما جميعاً ، فطاعة ولاة الأمر واجبة إذا أمروا بطاعة الله ورسوله وطاعة العلماء كذلك[5] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٤ /١٢٢ .

(٢) سورة النساء : الآية ٥٩ .

(٣) الدلائل النورانية ، عدنان سالم الرومي ، وعلي صالح الهزاع : ٧٧ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٥ /٢٥٩ .

(٥) مفتاح دار السعادة : ١ /٢٠٩ .

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[1] .

وهذه الآية تضمنت أرب صفات للعالم الرباني .

قال ابن قيم الجوزية :

الأولى : أنه أمة ، وهو القدوة الذي يؤتم به وجمع صفات الكمال من العلم والعمل بحيث بقي فيها فرادى وحده ...

الثانية : قانتا لله ، والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

الثالثة : حنيفاً ، والحنيف المقبل على الله ، ويلزم هذا المعنى ميله عمل سواه .

الرابعة : شاكراً لأنعمه ، والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان :

١ــ الإقرار بالنعمة .

٢ــ وإضافتها إلى المنعم بها .

٣ــ وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يجب .

والمقصود أنه سبحانه وتعالى مدح خليله بأربع صفات :

الأولى : العلم .

الثانية : العمل بموجبه .

الثالثة : تعليمه .

الرابعة : نشره[2] .

---

(١) سورة النحل : الآية ١٢٠ ــ ١٢١ .

(٢) مفتاح دار السعادة : ٢ /٣١ ــ ٣٢ .

وقال ابن مسعود :

إن الأمة : الذي يعلم الناس الخير[1] .

وقال ابن الأعرابي :

في معنى الرباني : إذا كان الرجل عالماً عاملاً معلماً قيل له هذا رباني ، فإن حزم عن خصلة منها لم نقل له ربانياً .

قال الإمام الحسن البصري :

(هذا حبيب الله ، وهذا ولي الله ، وهذا صفوة الله ، هذا خيرة الله هذا أحب أهل الأرض إلى الله أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته وقال إنني من المسلمين هذا خليفة الله)[2] .

وهذا داخل في قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[3] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٠ /١٩٨ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٤ /١٠١ .

(٣) سورة فصلت : الآية ٣٣ .

المبحث الثاني

صفات العلماء

بين القرآن الكريم صفات العلماء في عدة مواضع ، وهـذا المبحـث مخصص لاستنباط هذه الصفات الوارد ذكرها فيه ، والتي يمكن إجمالها بما يأتي :

الأولى : الخشية ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾[1] .

قال القرطبي :

(يعني العلماء الذين يخافون قدرته فمن علم أنه عز وجل قدير أبقـن بمعاقبته على المعصية .

كما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس :

﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ .

قال : الذين علموا أن الله على كل شيء قدير[2] .

وقال الربيع بن أنس :

من لم يخش الله تعالى فليس بعالم .

وقال مجاهد :

إنما العالم من خشى الله عز وجل .

وقال ابن مسعود :

كفى بخشية الله تعالى علماً وبالاغترار جهلاً .

---

(١) سورة فاطر : الآية ٢٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٤ /٣٤٥ .

وقيل لسعد بن إبراهيم :

من أفقه أهل المدينة ؟ قال : اتقاهم لربه عز وجل .

وعن مجاهد قال :

إنما الفقيه من يخاف الله عز وجل .

وعن علي ﷺ قال :

أن الفقيه حق الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم في معاصي الله تعالى ، ولم يؤمنهم من عذاب الله تعالى ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره أنه لا خير في عبادة لا علم فيها ولا علم لا فقه فيه ولا قراءة ولا تدبر فيها[1] .

وأسند الدارمي وأبو محمد عن مكحول قال :

قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: ((أن فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)) [2] .

ثم تلا هذه الآية :

﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ .

إن الله وملائكته وأهل سماواته وأهل أرضه والنون في البحر يصلون على الذين يعلمون الناس الخير[3] .

وقال تعالى :

﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**﴾[4].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٤ /٣٤٥ .

(٢) سُنَن التِّرْمِذيّ : ٥/٥٠ ، التاج الجامع للأصول : ١ /٦٤ ، عن أبي امامة الباهلي .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٤ /٣٤٥ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ١٨ .

في الآية دليل على فضل العالم وشرف العلماء وفضلهم ، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم الملائكة كما قرن اسم العلماء.

وقال في شرف العلم لنبيه ﷺ :

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[1] .

فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم وقال ﷺ :

((العلماء ورثة الأنبياء))[2] .

وقال الإمام الغزالي ــ رحمه الله تعالى ــ :

(أعلم أن حقيقة الخوف هو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في المستقبل ، وقد يكون ذلك من جريان ذنوب ، وقد يكون الخوف من الله تعالى بمعرفة صفاته التي توجب الخوف لا محالة ، وهذا أكمل وأتم لأن من عرف الله خافه بالضرورة)[3] .

وقال الشيخ أحمد زروق ــ رحمه الله ــ :

(من بواعث العمل وجود الخشية وهي تعظيم يصحبه مهابة)[4]

الثانية : الرفعة : قال تعالى :

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[5] .

---

(١) سورة طه : الآية ١١٤ .

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم : ١٠ ؛ وأبو داود في المقدمة ، والدارمي في المقدمة ، وابن ماجه في المقدمة . وأحمد بن حنبل في مسنده : ٥ /١٩٦ .

(٣) الأربعين في أصول الدين للغزالي : ١٩٦ .

(٤) قواعد التصوف : ٧٤ .

(٥) سورة الأنعام : الآية ٨٣ .

درجات : أي رتباً ــ عظيمة عالية من العلم والحكمة[١] .

وقال تعالى :

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[٢] .

وقال تعالى :

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[٣] .

أي في الثواب في الآخرة وفي الكرامة في الدنيا فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم[٤] .

وقال ابن مسعود :

مدح الله العلماء في هذه الآية والمعنى أنه يرفع الله الذين أتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم (درجات) أي درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به .

وقال يحيى بن يحيى عن مالك :

(يرفع الله الذين آمنوا منكم) . الصحابة (والذين أوتوا العلم درجات) يرفع الله بها العالم والطالب للحق .

والعموم أوقع في المسألة وأولى بمعنى الآية فيرفع المؤمن بإيمانه أولاً ثم بعلمه ثانياً .

---

(١) تفسير أبي السعود : ١ /١١٦ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٧٦ .

(٣) سورة المجادلة : الآية ١١ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٧ /٢٩٩ .

وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة فكلموه في ذلك فدعاهم ودعاه وسألهم في تفسير :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾[1] فسكتوا .

فقال ابن عباس :

هو أجل رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أعلمه الله إياه ... فقال عمر : (ما أعلمكم منها إلا ما تعلم)[2] .

وفي البخاري ــ عن عبد الله بن عباس قال :

قدم عيينه ابن حصن بن حذيفة بن بدر ــ فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ــ وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً[3] .

وفي صحيح مسلم أن نافع بن عبد الحق لقي عمر بعسفان وكان عمر يستعمله على مكة فقال :

من استعملته على أهل الوادي ؟ ... فقال :

ابن ابزى . فقال : ومن ابن ابزى ؟ قال : مولىً من موالينا ، قال فاستخلف عليهم مولىً : قال : إنه قارئ لكتاب الله وأنه عالم بالفرائض .

قال عمر : أما أن نبيكم ﷺ قد قال :

((إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين))[4] .

وقال ﷺ :

---

(١) سورة النصر : الآية ١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٧ /٢٩٩ .

(٣) المصدر نفسه : ١٧ /٢٣٠ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه : ٨١٧ .

((يشفع يوم القيامة ثلاثة ... الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء))[1].

فأعظم بمنزلة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رَسُولَ اللَّه ﷺ.

وعن ابن عباس :

خير سليمان عليه السلام بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم وأعطي المال والملك معه[2] .

الثالثة : عدم كتمان العلم :

قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ ﴾[3] .

استدل العلماء على وجوب تبليغ الحق وبيان العلم على الجملة وللآية تحقيق هو أن العالم إذا قصد الكتمان عصى ، وإذا لم يقصده لم يلزمه التبليغ إذا عرف أن معه غيره ، وأما من سئل فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية ، لقوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ :

((من سئل عن علم يعلمه فكتمه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار))[4] .

أما أنه لا يجوز تعليم الكافر القرآن والعلم حتى يسلم وكذلك لا يجوز تعليم المبتدع الجدال والحجاج ليجادل به أهل الحق ، ولا يعلم الخصم على خصمه حجة يقطع به ماله ، ولا السلطان تأويلاً يتطرق به إلى مكاره الرعية

---

(١) ابن ماجه في كتاب الزهد : ٢ /١٤٤٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٧ /٣٠٠ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٥٩ .

(٤) الْمُسْتَدْرَك عَلَى الصَّحِيحَيْنِ : ١٨١/١ ؛ صحيح ابن حبان : ٢٩٧/١ ؛ التاج : ١ /٣٧.

ولا ينشر الرخص في السفهاء فيجعل ذلك طريقاً إلى ارتكاب المحظـــورات وترك الواجبات .

قال عثمان ﷺ : ((لأحدثتكم حديثاً لولا آية في كتاب الله عز وجل ما حدثتكموه))[1] .

وقال أبو هريرة :

((إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ووالله لو آية[2] في كتاب الله مـــا حدثت شيئاً)) يقصد هذه الآية .

وكان أبو بكر وعمر ــ رضي الله عنهما ــ : لا يحدثان بكل ما سمعا من النبيَ ﷺ إلا عند الحاجة إليه .

وكان الزبير أقلهم حديثاً مخافة أن يواقع الكذب ولكنهم علموا أن العلم عنهم جميعهم فيبلغ واحد أن ترك آخر فإن قيل التبليغ فضيلة أو فرض؟ فإن كان فرضاً فكيف قصر فيه هؤلاء الجلة كأبي بكر وعمر والزبير وأمثـــالهم وإن كان فضيلة فلم قعدوا عنها فالجواب :

أن من سأل فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية للحديث[3] .

وأما من لم ينال فلا يلزمه التبليغ إلا في القرآن وحده وقد قال سحنون: (أن حديث أبي هريرة وعمر هذا إنما جاء في الشهادة) .

---

(١) صَحِيْح مُسْلِم : ٢٠٥/١ .

(٢) الذي في صحيح البخاري وسنن ابن ماجه (لولا آيتان) الآية ١٧٤ و ١٧٥ ، البقرة . صحيح البخاري : ١ /٤٠ ؛ وسنن ابن ماجه : ١ /٩٧ .

(٣) الذي رواه أبو هريرة ، وعمر بن العاص أن النبي ــ ﷺ ــ قال : ((من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار)) . سنن ابن ماجه : ١ /٩٨ .

قال القرطبي :

(والصحيح خلافه لأن في الحديث من سئل عن علم ولم يقل عن شهادة والبقاء على الظاهر حتى يرد عليه ما يزيله)[1] .

وقال ابن العربي :

(إن كان هناك من يبلغ اكتفي به وأن تعين عليه لزمه وسكت الخلفاء عن الإشارة بالتبليغ لأنه كان في المنصب من يرد ما يسمع أو يمضيه مع علمهم بعموم التبليغ فيه ، حتى أن عمر كره كثرة التبليغ وقد ثبت عن النبي ﷺ في فضيلة التبليغ أنه قال :

((نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فاداها كما سمعها))[2] .

وفي الآية دليل على أن ما كان من غير البينات والهدى جاز كتمه لقوله تعالى :

﴿ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى ﴾ .

لا سيما أن كان مع ذلك خوف فإن ذلك أكد في الكتمان ، وقد ترك أبو هريرة ذلك حين خاف ، فقال : حفظت عن رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ وعاءين فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم[3] .

قال العلماء :

وهذا الذي لم يبثه أبو هريرة وخاف على نفسه فيه الفتنة أو القتل أو ما يتعلق بأمر الفتن والنص على أعيان المرتدين والمنافقين ونحو هذا مما يتعلق بالبينات والهدى .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ١ /٤٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٢ /١٨٥ .

(٣) أخرجه البخاري : ١ /٤١ .

وفي الآية دليل على أن الذين يكتمون العلم مطرودون ومبعدون من ثوابه لقوله تعالى :

﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ﴾ .

أي يتبرأ منهم ويبعدهم لأن أصل اللعن في اللغة الإبعاد والطرد فيبعدهم الله ويطردهم ويستحقون بعد هذا لعنة اللاعنين .

واللاعنون هم الملائكة والمؤمنون كما قاله قتادة والربيع ، وقال مجاهد وعكرمة :

هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجدب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم .

فقد رجح الزجاج قول قتادة والربيع مستدلاً بأنه لا يوجد نص أو خبر لازم على الحشرات والبهائم .

وقال القرطبي :

قد جاء بذلك خبر رواه البراء بن عازب ﷺ قال :

قال رَسُولَ اللَّه ﷺ في قوله تعالى :

﴿ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَعِنُونَ ﴾ .

قال : ((دواب الأرض))[1] .

فإن قيل كيف جمع من لا يعقل جمع من يعقل : قيل لأنه أسند إليهم فعل من يعقل كما قال :

(رأيتهم لي ساجدين) ولم يقل ساجدات وقد قال : (لم شهدتم علينا)

---

(١) أخرجه ابن ماجه عن محمد بن الصباح بإسناد حسن ١٣٣٤/٢ . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٢ /٩٨٧ .

ومثله كثير .

وقال البراء بن عازب وابن عباس :

اللاعنون كل المخلوقات ما عدا الثقلين (الجن والإنس) وذلك أن ﷺ قال :

((الكافر إذا ضرب في قبره فصاح سمعه الكل إلا الثقلين ولعنه كل سامع)) .

وقال ابن مسعود والسدي :

هو الرجل يلعن صاحبه فترتفع اللعنة إلى السماء ثم تنحدر فلا تجد صاحبها الذي قبلت فيه أهلاً لذلك ، فترجع إلى الذي تكلم بها فلا تجده أهلاً فتنطلق فتقع على اليهود الذين كتموا ما أنزل الله تعالى فهو قوله :

﴿ **وَيَلْعَنُهُمُ اللاَعِنُونَ** ﴾ .

فمن مات منهم ارتفعت اللعنة عنه فكانت فيمن بقي من اليهود[1] .

قال الآلوسي :

من يأتي منه اللعن عليهم من الملائكة والثقلين فالمراد باللاعنين معناه الحقيقي .

وروى البيهقي عن مجاهد :

تفسير اللاعنين بدواب الأرض حتى العقارب والخنافس[2] .

وإذا أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبس ما يشترون[3] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٢ /٩٨٧ .

(٢) تفسير روح المعاني للآلوسي : ١ /٤٤٦ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٨٧ .

هذه الآية توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن ينوهوا بذكره في الناس فيكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه فكتموا ذلك .

فجاءت هذه الآية لتوبيخهم على ما كتموا من العلم ، ثم مع ذلك هو خبر عام لهم ولغيرهم .

قال الحسن وقتادة :

هي في كل من أوتي على شيء من الكتاب ، فمن علم شيئاً فليعلمه وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكه .

وقال محمد بن كعب :

لا يخل لعالم أن يسكت على علمه ولا لجاهل أن يسكت عن جهله وفيه تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلك الذين أوتوا الكتاب فيصيبهم ما أصابهم ويسلك بهم مسلكهم فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح[1] .

وقال أبو هريرة ﷺ :

لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء ثم تلا هذه الآية .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾

وقال الحسن بن عمارة :

أتيت الزهري بعد ما ترك الحديث فألقيته على بابه فقلت : أن رأيت أن تحدثني فقال : أما علمت أني تركت الحديث ؟ فقلت : أما تحدثني وأما أن أحدثك . قال حدثني . قلت : حدثني الحكم بن عتيبة بن يحيى بن الجزار

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ١ /٤٣٦ .

قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول :

ما أخذ الله على الجاهلين أن يتعلموا حتى أخذ العهد على العلمـــاء أن يعلموا ... قال فحدثني أربعين حديثاً[1] .

الرابعة : عدم القول بغير علم :

قال تعالى حكاية عن الملائكة :

﴿ **قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾[2].

الواجب على من سئل عن علم أن يقول أن لم يعلم الله أعلم ولا أدري.

اقتداءً بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء ، وأما مـــا ورد مـــن الأخبار عن النبي ﷺ وأصحابه والتابعين بعدهم في معنى الآية .

روى البستي عن أبن عمر أن رجلاً سأل رَسُولَ اللَّـــهِ ﷺ أي البقـــاع شر؟ قال :

لا أدري حتى أسأل جبريل .. فسأل جبريل ــ فقال :

لا أدري حتى أسأل ميكائيل فجاء فقال : خير البقاع المساجد وشـــرها الأسواق[3] .

وقال الصديق للجدة ــ ارجعي حتى أسأل الناس . وكان علي يقـــول وأبردها على الكبد ثلاث مرات ... قالوا : وما ذلك يا أميـــر المـــؤمنين . قال: أن يسأل الرجل عما لا يعلم فيقول الله أعلم .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٤ /٣٠٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٣٢ .

(٣) الذي في صحيح مسلم عن أبي هريرة (أحب البلاد إلى الله مساجدها وابغض الـــبلاد إلى الله أسواقها ، كتاب المساجد ، باب فضل المساجد . أخرجه البيهقي فـــي الـــسنن الكبرى : ٣ /٦٥ (فضل المساجد) .

وسأل ابن عمر رجل عن مسألة فقال : لا علم لي بها فلما أدبر الرجل قال ابن عمر : نعم ما قال ابن عمر سئل عما لا يعلم فقال لا علم لي به[1] .

وعن أبي عقيل يحيى بن متوكل صاحب بهيه[2] قال : كنت جالساً عند القاسم بن عبيد الله[3] عن يحيى بن سعيد فقال يحيى للقاسم : يا أبا محمد أنه قبيح على مثلك عظيم أن يسأل عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجد عندك منه علم ولا فرج أو علم ولا مخرج فقال له القاسم : وعم ذاك ... قال : لأنك ابن امامي هدى ابن أبي بكر وعمر قال : يقول له القاسم أقبح من ذاك عند من عقل عن الله أن أقول بغير علم أو أخذ من غير ثقة فسكت فما أجابه[4] .

وقال مالك بن أنس :

سمعت ابن هرمز يقول : ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده ... لا أدري حتى يكون أصلاً في أيديهم فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال: لا أدري .

وذكر الهيثم بن جحيل قال :

شهدت مالك بن أنس ــ سئل عن ثمان وأربعين مسألة ، فقال في اثنين وثلاثين منها : لا أدري .

---

(١) سنن الدارمي : ١ /٥٠ .

(٢) بهيه (بالتصغير) مولاة أبي بكر ﷺ تروى عن عائشة وروى عنها أبو عقيل .

(٣) هو القاسم بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وأم القاسم هي أم عبد الله بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق فأبو بكر جده الأعلى لأمه وعمر جده الأعلى لأبيه وابن عمر جده الحقيقي ــ عن شرح النووي على صحيح مسلم .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١ /٢٨٦ .

ومثل هذا كثير عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسة وعدم الأنصاف في العلم .

قال ابن عبد البر :

من بركة العلم وآدابه الأنصاف فيه ومن لم ينصف لم يفهم ولم يتفهم.

روى يونس بن عبد الأعلى قال :

سمعت ابن وهب يقول : سمعت مالك بن أنس يقول :

ما في زماننا شيء أقل من الأنصاف .

فإذا ترك الأنصاف في العلم وطلب العلم للرياسة والظهور في الدنيا وغلبة الأقران للمراء والجدال الذي يقسي القلب ويورث الضغائن ، فإن ذلك يحمل على عدم تقوى الله والخوف منه ، فإن الذي يطلب العلم مبتغياً به وجه الله يتصف بصفة التواضع وعدم الاعتداد بالرأي والإعجاب به كما وقع لعمر بن الخطاب مما روى عنه ﷺ أنه قد قال في مهور النساء :

((لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية ولو كانت بنت ذي العصبة[1] فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال فقامت امرأة من صوب النساء طويلة فيها فطس[2] . فقالت : ما ذلك لك . قال : ولم . قالت : لأن الله عز وجل يقول :

﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ .

فقال عمر : ((امرأة أصابت ورجل أخطأ)) .

وروى وكيع عن أبي معشر ، عن محمد بن كعب القرضي قال :

---

(١) يعني يزيد بن الحصين الحارثي .

(٢) فطس : تطامن قصبة الأنف وانتشارها وانفراش الأنف في الوجه .

سأل رجل علياً ﷺ عن مسألة فقال فيها ، فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ، فقال علي : أصبت وأخطأت وفوق كل ذي علم عليم[١] .

وذكر أبو محمد قاسم بن اصبغ قال :

لما رحلت إلى المشرق نزلت قيروان ، فأخذت على بكر ابن حماد حديث مسدد ، ثم رحلت إلى بغداد ولقيت الناس فلما انصرفت عدت إليه ، لتمام حديث مسدد فقرأت عليه فيه يوماً حديث النبي ﷺ ((أنه قدم عليه قوم من مضر من مجتابي النمار))[٢] فقال : إنما هو مجتابي النمار ، فقلت : إنما هو مجتابي النمار ، هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق فقال لي : بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا ثم قال لي : قم بنا إلى ذلك الشيخ ــ لشيخ كان في المسجد ــ فإن له بمثل هذا علماً فقمنا إليه فسألناه عن ذلك فقال : إنما هو مجتابي النمار كما قلت ، وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة[٣] جيوبهم أمامهم والنمار جمع نمرة ــ وقال بكر بن حماد وأخذ بأنفه فقال : رغم أنفي للحق ، رغم أنفي للحق وانصرف .

وقال يزيد بن الوليد بن عبد الملك :

إذا ما تحدثت في مجلس تناهى حديثي إلى ما علمت
ولم أعدُ علمي إلى غيره وكان إذا ما تناهى سكت[٤]

الخامسة : الرحلة في طلب العلم :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١ /٢٨٧ .

(٢) أي لابسوها ، يقال : اجتبت القميص والظلام دخلت فيهما .

(٣) أي مخططه .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١ /٢٨٧ .

قال تعالى :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ ﴾[1] .

نبدأ برسول الله موسى فهو الذي ارتاد البحار والقفار بحثاً عن من علمه الله رشداً .

فبينما موسى في ملأ من بني إسرائيل . إذا جاءه رجل فقال : أتعلم أحداً أعلم منك ؟ قال موسى : لا ، فأوحى الله عز وجل إلى موسى بلى عبدنا خضر فأسأله السبيل إلى لقياه ، فجعل له الله الحوت آية وقيل له :

إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه فكان موسى عليه السلام يتبع أثر الحوت في البحر فقال : فتى موسى لموسى : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما إنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، قال موسى ذلك ما كنا نبغ فارتدا على أثراهما قصصاً فوجدا خضراً فكان من شأنهما ما قص الله في كتابه[2] .

وقد عقد البخاري لرحلة موسى باباً في صحيحه أسماه : (باب ما ذكر في ذهاب موسى في البحر إلى الخضر) .

(وهذا الباب معقود للترغيب في احتمال المشقة في طلب العلم)[3].

وقد كان هذا صفة للعلماء فقد ورد أن كبرا الصحابة كانوا يرحلون في طلب مسألة من مسائل العلم ، قد ذكر البخاري في صحيحه باباً هو باب الخروج في طلب العلم ذكر فيه ((رحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٩٠ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب العلم ــ باب ما ذكر في ذهاب موسى ــ عليه السلام ــ في البحر .

(٣) فتح الباري ، ابن حجر العسقلاني : ١ /١٣٦ .

عبد الله بن أنيس في حديث واحد))[1] .

يقول جابر بن عبد الله : بلغني عن رجل حديث سمعه من رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فاشتريت بعيراً ثم شددت رحلي فسرت إليه شهراً حتى قدمت الشام فإذا عبد الله بن أنيس فقلت للبواب :

قل له جابر على الباب ، فقال بن عبد الله : قلت : نعم ، فخرج فاعتنقني ، فقلت : حديث بلغني عنك ــ أنك سمعته من رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ... فخشيت أن أموت قبل أن أسمعه . فقال :

سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول :

((يحشر الناس يوم القيام عراة))[2] .

قال القرطبي :

في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم ، وذلك كان في داب السلف الصالح وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح وحصلوا على السعي الناجح فرسخت لهم في العلوم أقدام وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام[3] .

السادسة : قوة أصحاب العلم وإقتداؤهم على غيرهم :

بدليل قوله تعالى :

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب العلم ــ باب الخروج في طلب العلم .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني : ١ /١٤١ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١١ /١١ .

طَرْفُكَ فَلَمَّا ﴾[1] .

فقد اختلفت الروايات في تعيين هذا القائل ولكن المهم والذي يعنينا في هذه الآية هو أن الله سبحانه وتعالى عبر عنه بأنه من أهل العلم .

يقول الآلوسي ــ رحمه الله ــ :

(ويكون التعبير عنه بما في النظم الكريم للدلالة على شرف العلم وأن هذه الكرامة كانت بسببه)[2] .

وذكر القرطبي قولاً نسبه إلى محمد بن المنكدر :

(إنما هو سليمان عليه السلام وأما أن الناس يرون أنه كان معه اسم وليس ذلك كذلك ، إنما كان رجل من بني إسرائيل عالم أتاه الله علماً وفقهاً)[3] .

قال صاحب الظلال ــ رحمه الله ــ :

(وهذا الذي عنده علم من الكتاب كانت نفسه مهيأة بسبب ما عنده من علم ببعض الأسرار والقوى الكونية التي تتم بها تلك الخارقة التي تمت على يده لأن ما عنده من علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يهيئه للتلقي ولاستخدام ما وهبه الله من قوى وأسرار)[4] .

---

(١) سورة النمل : الآية ٤٠ .

(٢) روح المعاني للآلوسي : ٦ /٢٧٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٣ /٢٠٥

(٤) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ٦ /١٤٩ .

المبحث الثالث

وجوب الاسترشاد بالعلماء

قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[1] .

قال ابن عباس :

أهل الذكر ... أهل القرآن وقيل أهل العلم .

قال الآلوسي :

يجوز أن يراد من أهل الذكر أهل القرآن .

وقال الرماني والزجاج والأزهري :

المراد بأهل الذكر ــ علماء أخبار الأمم السالفة كائناً من كان ، فالذكر بمعنى الحفظ كأنه قيل : اسألوا المطلعين عن أخبار الأمم ليعلموكم بذلك ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

واستدل بها على وجوب المراجعة للعلماء فيما لا يعلم ، وفي الإكليل للجلال السيوطي أنه استدل بها على جواز تقليد العامي في الفروع ويؤيد ذلك ما نقل عن الجلال المحلي أنه يلزم غير المجتهد عامياً كان أو غيره التقليد للمجتهد لقوله تعالى :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

ولا فرق بين المسائل الاعتقادية وغيرها وبين أن يكون المجتهد حياً أو ميتاً وصحح هو أو غيره امتناع التقليد على المجتهد مطلقاً سواء كان له

---

(١) سورة النحل : الآية ٤٣ .

قاطع أو لا ، وسواء كان مجتهداً بالفعل أو له أهلية الاجتهاد ، ومقتضى كلامهم أنه لا فرق بين تقليد أحد أئمة المذاهب الأربعة وتقليد غيره من المجتهدين .

نعم ذكر العلامة ابن حجر وغيره أنه يشترط في تقليد الغير أن يكون مذهبه مدوناً محفوظ الشروط والمعتبرات وقول السبكي :

أن مخالف الأربعة كمخالف الإجماع محمول على ما لم يحفظ . ولم تعرف شروطه وسائر معتبراته من المذاهب التي انقطع حملتها وفقدت كتبها كمذهب الثوري والأوزاعي وابن أبي ليلى وغيرهم .

ثم تقليد الغير بشرطه إنما يجوز في العمل وأما للإفتاء والقضاء فيتعين أحد المذاهب الأربعة واستشكل الفرق العلامة ابن قاسم العبادي وأجيب بأنه يحتمل أن يكون الفرق أنه يحتاط فيهما لتعديهما ما لا يحتاط في العمل فيتركان الأدنى محذوراً ولو محتملاً ، ونظير ذلك ما ذكره بعض الشافعية في القولين المتكافئين .

ــ أنه لا يفتي ولا يقضي بكل منهما لاحتمال كونه مرجوحاً ، ويجوز العمل به .

وذكر الإمام أن من الناس من جوز التقليد للمجتهد في هذه الآية فقال: لما لم يكن أحد المجتهدين عالماً وجب عليه الرجوع إلى المجتهد العالم لقوله تعالى :

﴿ **فَاسْأَلُوا .... الآية** ﴾ فإن لم يجب فلا اقل من الجواز ، وأيد ذلك بأن بعض المجتهدين نقلوا مذاهب بعض الصحابة وأقروا الحكم عليها فالصحيح فيما ذكر وليس بتقليد بل هو من باب موافقة الاجتهاد للاجتهاد واحتج بها أيضاً نفاة القياس وقالوا : المكلف إذا نزلت به واقعة فإن كان

عالماً بحكمها لم يجز له القياس وإلا وجب عليه سؤال من كان عالماً بها في ظاهر الآية ، ولو كان القياس حجة لما وجب عليه السؤال لأجل أن يمكنه استنباط ذلك الحكم بالقياس فثبت أن تجويز العمل بالقياس يوجب ترك العمل بظاهر الآية فوجب أن لا يجوز وأجيب بأنه ثبت جواز العمل بالقياس بإجماع الصحابة والإجماع أقوى من هذا الدليل .

وقال بعضهم :

إذا كان المكلف ممن يقدر على القياس كان ممن يعلم فلا يجب عليه السؤال[1] .

قال تعالى :

﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[2] .

أمر الله تعالى برد المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وليس لغير العلماء معرفة كيفية الرد إلى الكتاب والسنة ويدل هذا على صحة كون سؤال العلماء واجباً وامتثال فتواهم لازماً .

قال سهيل بن عبد الله ــ رحمه الله ــ :

لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء فإذا عظموا هذين اصلح الله دنياهم وأخراهم وإن استخفوا بهذين أفسدوا دنياهم وأخراهم[3]

(المراد العلماء الذين يفقهون في الأحكام الشرعية ويعلمون الناس دينهم) .

---

(١) روح المعاني : ٤ /٣٧٨ .

(٢) سورة النساء : الآية ٥٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٥ /٢٦٠ .

وهذه رواية الثعلبي عن ابن عباس وقول الحسن ومجاهد والضحاك ﴿ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

يدل على أن إجماع الأمة حجة والدليل على ذلك أن الله أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم فلا بد أن يكون معصوماً عن الخطأ[1] .

فلا بد من الرجوع إلى العلماء والاسترشاد بهم وتقليدهم لأن التقليد لمن لا يعلم الحكم مشروع بإجماع المسلمين .

والتقليد هو :

اتباع قول إنسان دون معرفة الحجة على صحة ذلك القول ، وأن توفرت معرفة الحجة على صحة التقليد نفسه .

فالمقلد قد يعرف الحجة على صحة تقليده للعالم المجتهد ، ولكنه لا يعرف الحجة على صحة ما يقلد المجتهد فيه ... ولا فرق بين أن نسعي هذا العمل تقليداً أو اتباعاً فكلاهما بمعنى واحد ولم يثبت أي فرق لغوي بينهما وقد عبر الله بالاتباع عن التقليد في أسوء أنواعه فقال جل جلاله :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾[2] .

فما من شك أن المراد بالاتباع هنا هو التقليد الأعمى الذي لا مسوغ له[3] .

والدليل على مشروعية التقليد ووجوبه عند عدم التمكن من الاجتهاد من

---

(١) الرازي : ١٠ /١٤٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٦٦ .

(٣) اللامذهبية ، د . محمد سعيد رمضان البوطي : ٦٩ ــ ٧٠ .

وجوه :

الأول : قوله تعالى :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

أجمع العلماء على أن الآية أمر لمن لا يعلم الحكم ولا دليله باتباع من يعلم ذلك وقد جعل عامة علماء الأصول هذه الآية عمدتهم الأولى في أن على العامي تقليد العالم المجتهد[1] .

ومثل هذه الآية في الدلالة نفسها قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[2] .

قد نهى الله تعالى أن ينفر الناس كافة للغزو والجهاد وأمر بقاء طائفة منهم يتفرغون للتفقه في دين الله ، حتى إذا عاد إخوانهم إليهم وجدوا فيهم من يفتيهم في أمر الحلال والحرام وبيان حكم الله عز وجل[3] .

الثاني : ما دل عليه الإجماع أن أصحاب رَسُولَ اللَّهِ ﷺ انوا يتفاوتون في العلم ولم يكن جميعهم أهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ من جميعهم.

بل كان فيهم المجتهد وهم قلة بالنسبة لسائرهم وفيهم المستفتي المقلد وهم الكثرة الغالبة فيهم ولم يكن المفتي من الصحابة يلتزم مع ذكر الحكم بيان دليله للمستفتي .

وقد كان الرسول ﷺ يبعث الفقيه من الصحابة إلى المكان الذي لا يعلم سكانه من الإسلام إلا عقيدته والاعتقاد بأركانه فيتبعونه بكل ما يفتيهم به

---

(١) المصدر نفسه : ٧١ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٢٢ .

(٣) انظر تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٨ /٢٩٣ ــ ٢٩٤ .

ويحملهم عليه من الأعمال والعبادات والمعاملات وعامة شؤون الحلال والحرام وربما اعترضه أمر لم يجد فيه دليلاً من كتابة ولا سنة فيجتهد فيهم ويفتيهم بما هداه إليه اجتهاده فيقلدونه في ذلك[1] .

يقول الغزالي في المستصفى في باب التقليد والاستفتاء مستدلاً على أن العامي ليس له إلا التقليد ما نصه (ونستدل على ذلك بمسلكين) :

أحدهما : إجماع الصحابة فإنهم كانوا يفتون العوام ولا يأمروتهم بنيل درجة الاجتهاد وذلك معلوم على الضرورة والتواتر من علمائهم وعوامهم[2].

وقال الآمدي في كتابه الأحكام :

((وأما الإجماع فهو أنه لم تزل العامة في زمن الصحابة والتابعين قبل حدوث المخالفين يستفتون المجتهدين ويتبعونهم في الأحكام الشرعية والعلماء منهم يبادرون إلى إجابة سؤالهم من غير إشارة إلى ذكر الدليل ، ولا ينهونهم عن ذلك من غير نكير فكان إجماعاً على جواز اتباع العامي للمجتهد مطلقاً))[3] .

وقد كان المتصدرون للفتوى في عصر الصحابة أفراداً محصورين عرفوا بين الصحابة بالفقه والرواية وملكة الاستنباط ، وأشهرهم الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مسعود ، وأبو موسى الأشعري ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، أما المقلدون لهؤلاء في المذهب والفتوى فكادوا فوق الحصر .

أما في عهد التابعين فقد اتسعت دائرة الاجتهاد وسلك المسلمون في هذا

((١)) اللامذهبية للبوطي : ٧١ .

((٢)) المستصفى للغزالي : ٢ /٣٨٥ .

((٣)) الأحكام للآمدي : ٣ /١٧١ .

العهد نفس الطريق الذي سلكه أصحاب رَسُولَ اللَّه ﷺ إلاّ أن الاجتهاد تمثل في مذهبين رئيسين هما مذهبا الرأي والحديث ومن أقطاب مذهب الرأي في العراق : علقمة بن قيس النخعي ، ومسروق بن الأجدع وإبراهيم بن زيد النخعي ، وسعيد بن جبير ، وقد كان في العراق ومن حولها يقلدون هذا المذهب دون أي نكير .

ومن أقطاب مذهب الحديث في الحجاز سعيد بن المسيب المخزومي، وعروة بن الزبير ، وسالم بن عبد الله بن عمر وسليمان بن يسار ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وكان عامة أهل الحجاز وما حولها يقلدون هذا المذهب دون أي نكير[1] .

الثالث : الدليل العقلي البين :

ونعبر عنه بما قاله العلامة الشيخ عبد الله دراز :

(... والدليل المعقول هو أن من لم يكن عنده أهلية الاجتهاد ، إذا حدثت به حادثة فرعية ، فأما أن لا يكون متعبداً بشيء فأما النظر في الدليل للمثبت للحكم أو بالتقليد ، والأول ممتنع لأن ذلك يفضي في حقه وحق الخلق أجمع إلى النظر في أدلة الحوادث والاشتغال عن المعايش وتعطيل الحرف والصناعات ، وخراب الدنيا بتعطيل الحرث والنسل ورفع التقليد رأساً هو منتهى الحرج . فلم يبق إلا التقليد وأنه هو المتعبد به عند ذلك الفرض)[2] .

ولما رأى العلماء تكامل كل من دليل الكتاب والسنة والعقل على أن العامي أو العالم الذي لم يبلغ درجة الاستنباط والاجتهاد ليس له إلا أن يقلد

---

(١) اللامذهبية للبوطي : ٧٣ .

(٢) انظر تعليق الشيخ عبد الله دراز على الموافقات للشاطبي : ٤ /٢٢ ، وانظر ما قاله في ذلك الآمدي والغزالي في المرجعين السابقين .

مجتهداً متبصراً بالدليل .

قالوا : إن فتوى المجتهد بالنسبة للمعاصي مثل دليل الكتاب والسنة بالنسبة للمجتهد لأن القرآن كما الزم العالم به التمسك بدلائله وبراهينه ، فقد الزم الجاهل بالتمسك بفتوى العالم واجتهاده[1] .

وفي بيان ذلك يقول الشاطبي :

(فتاوى المجتهدين بالنسبة إلى العوام ، كالأدلة الشرعية بالنسبة للمجتهدين ، والدليل عليه أن وجود الأدلة بالنسبة إلى المقلدين وعدمها سواء إذا كانوا لا يستفيدون منها شيئاً ، فليس النظر في الأدلة والاستنباط من شأنهم ولا يجوز ذلك لهم البتة ، وقد قال تعالى :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

والمقلد غير العالم فلا يصح له إلا سؤال أهل الذكر وإليهم مرجعه في الأحكام في أحكام الدين على الإطلاق ، فهم إذاً القائمون له مقام الشرع ، وأقوالهم قائمة مقام الشارع)[2] .

---

(١) اللامذهبية للبوطي : ٧٣ .

(٢) الموافقات للشاطبي : ٤ /٢٩٢ ــ ٢٩٠ .

الفصل الرابع

منهج القرآن العلمي وأثره في الحضارة

المبحث الاول: خصائص الحضارة الإسلامية

المبحث الثاني: واقع الحضارة الإسلامية

المبحث الثالث: أثر الحضارة القرآنية في الحضارة الحديثة

تمهيد

لم تكن الحضارة العربية الإسلامية ذات أثر كبير إلا بفضل الإسلام وبفضل التعاليم الإسلامية وما ورد في كتاب الله الكريم وفي سنة نبيه محمد ﷺ ، فكانت أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس . أقامت حضارة أضاءت بها الدنيا في وقت كان فيه العالم في ظلام دامس ، لقد دعا الإسلام إلى العلم لأنه ركيزة أساسية لتحقيق التربية الصحيحة التي كانت تهدف إليها الدعوة الإسلامية وتعبر أولى آيات القرآن الكريم عن أهمية العلم في الإسلام .

يقول الله عز وجل :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(١) .

ثم نزلت آيات أخرى كثيرة تتضمن حثاً للمسلمين وتشجيعاً لهم على تحصيل العلم كما تتضمن تمييزاً للذين أوتوا العلم عن غيرهم وتمجيداً لهم وتزكية ويتمثل ذلك في قوله تعالى :

﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٢) .

وقوله تعالى :

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾(٣) .

---

(١) سورة العلق : الآية ١ ــ ٤ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٦٢ .

(٣) سورة المجادلة : الآية ١١ .

كذلك حث الرسول الأعظم ﷺ : على تلقي العلم وتحصيله ، ووردت أحاديث كثيرة في هذا الباب حتى أفردت أبواب خاصة لها في كتب السنة ، وقد ذكر بعضها في الفصل الأول .

كما اهتم الخلفاء والحكام من بعدهم في العصور الإسلامية الزاهية بالعلم والعلماء فكانت البيئة الإسلامية أساساً لنهضة علمية في كل فروع العلم والمعرفة وتقدمت العلوم وارتقت وتقدم الطب وعلا شأنه بعد أن كان قائماً على الخرافات ، وتقدمت الزراعة والصناعة والتجارة والنظم بمختلف أنواعها وهكذا وصلت الأمة الإسلامية في نواحي نشاطها الفكري والعقلي من عمران وعلوم ومعارف وفنون إلى غاية كبرى دفعتها إلى التأثير في حضارات أخرى جاءت بعدها بقرون عديدة[1] .

والقرآن الكريم . ما جاء ليؤكد موقفه من العمل الحضاري على الجوانب الروحية والأخلاقية فحسب .

أننا بازاء آيات عديدة تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة وفي صميم العلاقات المادية بين الجزئيات والذريات ...

أننا بازاء حركة حضارية شاملة تطلب من الإنسان أن ينظر في السموات والأرض .

أن القرآن من خلال آياته . يريد أن يضعنا في قلب الطبيعة على مستوى الكون والعالم لذلك يوجه أنظارنا إلى أشد الأمور مادية وثقلاً ، الطعام ، النطفة الأولى ، الأرض والسماء ، الجبال وإلى دنيا النبات

---

(١) المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، د . إبراهيم سلمان الكروي : ٧ .

والحيوان ، ويدعونا إلى أن نسير بحثاً عن سنن هذه العوالم وإدراكاً لأبعاد خلقها المعجزة التي لا تتحقق إلا بإرادة كلية نافذة لا يعجزها شيء ... أن القرآن يدعو إلى حضارة تنمو على كل المستويات الروحية والأخلاقية والطبيعية ، وهو يخصص المقاطع والآيات الطوال للمسألة الحضارية في مستواها الطبيعي المادي ولكن شرط أن تضبطها القيم والمقاييس الدينية الآتية من عند الله[1] .

(والقرآن الكريم ليس مجرد كتاب ديني يبشر بعقيدة جديدة أنه في حقيقة أمره ظاهرة حضارية كبرى بأوسع ما يعنيه لفظ الحضارة من سمو روحي وفكري واجتماعي ، ونستطيع أن نقرر بواقعية وأمانة ، أن القرآن الكريم يمثل حجر الزاوية في بناء أعظم حضارة عرفتها البشرية طوال العصور الوسطى)[2] .

فقد كان الناس عرباً وعجماً يعيشون حياة جاهلية يسجدون فيها لكل ما خلق لأجلهم ويخضع لإرادتهم وتصرفهم لا يثيب الطائع بجائزة ولا بعذاب العاصي بعقوبة ولا يأمره ولا ينهي ، فكانت الديانة سطحية طافية في حياتهم وليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم ولا تأثير لها في أخلاقهم واجتماعهم إلى أن جاء الإسلام ونقل العرب الذين اسلموا من هذه المعرفة العليلة الميتة الغامضة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح وذات تأثير في الأخلاق والاجتماع وذات سيطرة . على الحياة أو ما يتصل بها ، آمنوا بالله الذين له الأسماء

---

(١) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم ، د . عماد الدين خليل : ٩٥ ــ ٩٦ ــ ٩٧ .

(٢) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، مجموعة من المؤلفين : ٢٦ .

الحسنى والمثل الأعلى فانقلبت حياتهم انقلاباً واضحاً وتغلغل الإيمان في أحشائهم وتسرب إلى عروقهم ومشاعرهم وجرى منهم مجرى الروح والدم واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها وغمر العقل والقلب بفيوضاته حتى ظهرت خوارق الأفعال والأخلاق في الذين غيرهم الإسلام فخيروا العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق[1] .

ومنذ وقت مبكر اتخذ المفسرون للقرآن الكريم اتجاهين رئيسيين :

أولهما : التفسير بالمأثور أو المنقول .

والثاني : التفسير بالرأي والاجتهاد .

أما التفسير بالمأثور والمنقول ــ فالمقصود به الاعتماد على ما آثر عن النبي ﷺ ومع مرور الوقت اتسع هذا النوع من التفسير فدخل فيه ما نقل عن الصحابة والتابعين ثم تعرض لوضع القصاص ، والوضاع فزادوا فيه من عندهم واختلق بعضهم أحاديث نسبوها إلى الرسول ﷺ في تفسير بعض آيات القرآن الكريم حتى أن الآية الواحدة أحياناً وجد لها تفسيران متناقضان منسوبان إلى الرسول ﷺ وهذا ما لا يمكن أن يحدث ، وقد أدى ذلك إلى تحكيم العقل والاجتهاد في التوصل إلى المعنى السليم . وهذا هو الاتجاه الثاني في التفسير[2] .

وقد ساعد على ظهور هذا الاتجاه الجديد في التفسير أن الإسلام احترم عقل الإنسان ونادى بتعقل الإيمان بحيث يحكم المسلم فكره في كل ما يراه أمامه من ظواهر طبيعية وغيرها ليقف على قدرة عز وجل[3] .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندوي : ١٠٠ .

(٢) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، مجموعة من المؤلفين : ٣٧ .

(٣) الْمَصْدَر نَفْسه : ٣٧ .

وقد أعطى الإسلام دوراً كبيراً للعقل ودعا إلى التدبر الذي لا يكون إلا بالعقل وإلى التفكر الذي لا يكون إلا به ، كذلك وكان من الطبيعي أن يؤدى إلى الاجتهاد وإلى تعدد وجهات النظر في تفسير بعض الألفاظ والعبارات والآيات .

وكان استخدام العقل والتفكير سبباً لنشاط الحركة الفكرية ومع نشاط الحركة الفكرية أخذ التفسير يتأثر بالحركة العلمية حتى اتجه بعض المفسرين إلى التفسير العلمي للقرآن الكريم .

فأخذ المفسرون يتعرضون للآيات ويذكرون ما يستنبط منها من أحكام وقواعد في شتى آفاق الحياة الخلقية والأسرية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها فضلاً عن قواعد اللغة والنحو والبلاغة وهكذا غدا القرآن الكريم منبعاً لكثير من العلوم التي اشتغل بها المسلمون فعلماء النحو اتخذوا منه مادة خصبة استنبطوا منها قواعد اللغة العربية والفقهاء استمدوا منه آراءهم الفقهية والمؤرخون وجدوا في القرآن مصدراً من مصادر الرواية التاريخية ، ولن تلبث أن غدت كتب التفسير موسوعات ضخمة ، لغوية وأدبية ، وفقهية وتاريخية وعلمية[1] .

ولما للقرآن وأسلوبه العلمي الدقيق والواسع من أثر كبير في الحضارة اهتم علماء الأمة الإسلامية بدراسته وفهم معانيه واستنباط المناهج التربوية حتى أنهم ألفوا كتباً في هذا المجال كالقابسي مثلاً الذي كانت له آراءً وأفكار في مجال التربية في الإسلام والذي قسم العلوم إلى قسمين :

إجباري واختياري .

---

(١) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية : ٣٩ .

(فالعلوم الإجبارية هي : القرآن والقراءة والكتابة والنحو ، والعلوم الاختيارية هي : الحساب والشعر وأيام العرب وأخبارهم)[1] .

وقد انتهى الأمر بالفقهاء إلى فرض تعليم القرآن ، فقال صاحب مفتاح السعادة : (أعلم أن حفظ القرآن فرض كفاية على الأمة لئلا ينقطع عدد التواتر فيه فلا يتطرق إلى التبديل ولا التحريف وتعليمه أيضاً فرض وهو من أفضل القرب)[2] .

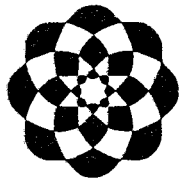

(١) المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، د . إبراهيم سلمان الكروي : ٣٩٥ .

(٢) مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، طاش كوبرى زادة : ٢ /٢٥٩ .

المبحث الأول

خصائص الحضارة الإسلامية

الحضارة الإسلامية هي حلقة من سلسلة الحضارات الإنسانية سبقتها حضارات وستتبعها حضارات وقد كان لقيامها عوامل ولها دور في تاريخ التقدم الإنساني لما قدمته في ميدان العقيدة والعلم والخلق والفن والأدب .

فقد شملت النواحي النظرية والعمرانية فعرفت الشعوب قاعدة الشورى في الحكم ونظام البيعة الذي مارسه المسلمون منذ خلافة أبي بكر الصديق وعرفت الشعوب في الاقتصاد حق الفقير من مال الغني ونظام بيت المال ورد الأمانات إلى أهلها كما عرفوا في الآداب الدينية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1] .

فإن من أبرز ما يلفت النظر لدارس الحضارة الإسلامية أنها تميزت بالخصائص الآتية :

الأولى : أنها حضارة إيمان تؤمن بالله الاله الواحد الذي لا شريك له في حكمه وملكه (هو وحده الذي يعيد وهو وحده الذي يقصد ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ وهو الذي يعز ويذل ويعطي ويمنع وما من شيء في السموات والأرض إلا وهو تحت قدرته وفي متناول قبضته)[2] .

(وأن الله تعالى خالق هذا الكون ومبدعه على هذا النحو المعجز من حيث الدقة والنظام والتوازن والعلاقات وخلق الإنسان ...

وأن الله تعالى سخر هذا الكون بما فيه للإنسان وزود هذا الإنسان

---

(١) المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، د . إبراهيم سلمان الكروي ، د . عبد التواب شرف الدين :١٩ ــ ٢٠ .

(٢) من روائع حضارتنا ، د . مصطفى السباعي : ٤٦ .

بالطاقات النفسية والعقلية والجسدية التي تؤهله لاستغلال ما فيه من خيرات)[1] .

وهذا السمو في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والأشراف والأقوياء ورجال الدين وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين وتوجيه الأنظار إلى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين .

وهذه الوحدة في العقيدة تطبع كل الأسس والنظم التي جاءت بها الحضارة الإسلامية .

فهنالك الوحدة في الرسالة والوحدة في التشريع ، والوحدة في الأهداف العامة والوحدة في الكيان الإنساني العام والوحدة في وسائل المعيشة وطراز التفكير حتى أن الباحثين في الفنون الإسلامية قد لحظوا وحدة الأسلوب والذوق في أنواعها المختلفة فقطعة من العاج الأندلسي وأخرى من النسيج المصري وثالثة من الخزف الشامي ورابعة من المعادن الإيرانية ... تبدو رغم تنوع أشكالها وزخرفتها ذات أسلوب واحد وطابع واحد[2] .

وتؤمن بالرسالات والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وتهتدي بهدى خاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

(والحضارة الإسلامية عندما اتخذت من الإيمان ركيزة لها إنما استهدفت أن تحمي كيانها بسياج منيع من القيم الروحية والمثل الكريمة ، فلا خير في علم دون خلق ومكارم الأخلاق في جوهر الديانات السماوية كلها بحيث أنها إذا اتفقت في شيء فإنها تتفق جميعاً في الأمر بالمعروف والنهي

---

(١) المرجع في الحضارة العربية الإسلامية : ٢٤ .

(٢) من روائع حضارتنا ، د . مصطفى السباعي : ٤٦ .

عن المنكر ، والإيمان في الإسلام لا يتعارض مع العقل لأن الإسلام يقوم على أساس مبدأ تعقل الإيمان حتى يكون الإيمان راسخاً ثابتاً لا يتأرجح بتأرجح العاطفة)[١] .

الثانية : الحضارة الإسلامية : حضارة إنسانية ، ونعني بكونها إنسانية أنها ملائمة لفطرة الإنسان وخصائصه ، المتعددة التي ينفرد بها دون سائر المخلوقات ومسايرة لتطلعاته ونشاطاته السوية وقادرة على تلبية حاجاته لأنها أعطتنا في جملة ما أعطت أكمل تصور للإنسان باعتباره كائناً بشرياً خلقه الله تعالى واستخلفه في هذه الأرض من أجل غاية سامية وأهداف نبيلة[٢] .

تستهدف أولاً وأخيراً خير الإنسان في الدنيا والآخرة والرحمة به والحفاظ على كرامته والنهوض بمستواه الروحي والفكري والاجتماعي والاقتصادي[٣] ، إنها إنسانية تنظر إلى الناس بمقياس واحد قوامه المساواة بين الناس وليست مقفلة ولا مقصورة على جنس أو أمة فهي توصل وحدة البشرية من خلال بيان بدء الخليقة وطبيعة تكوينها ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾[٤] .

وتشعرها بصلة الرحم التي تربطها حيث تنتهي إلى أصل واحد الناس وبهذا الربط تصبح العلاقة بين الناس علاقة تعاون وتساند ويكون كل فرد

---

(١) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، مجموعة من المؤلفين : ١٦ .

(٢) المرجع في الحضارة العربية الإسلامية : ٢٢ .

(٣) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، مجموعة من المؤلفين : ٢٠ .

(٤) سورة النساء : الآية ١ .

داخل المجتمع مسخراً للآخر وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم .

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾[1] .

وهي تريد للبشرية أن تلتقي على اشرف وأكرم خصائصها[2] .

يقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[3] .

إن القرآن الكريم أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومنابته ومواطنه ، وحين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة ... جعل حضارته عقداً تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها رايات الفتوح الإسلامية .

ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد وأمة واحدة إلا الحضارة الإسلامية فإنها تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب .

فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشد وأمثالهم ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم ، ليسوا إلا عباقرة قدمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتائج الفكر

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٣٢ .

(٢) مستقبل الحضارة ، يوسف كمال : ٢٠٩ ــ ٢١٠ ؛ والبناء الحضاري في القرآن الكريم ، عبد السلام داود : ١٥٤ .

(٣) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

الإنساني السليم[1] .

والله تعالى كرم الإنسان تكريماً جعله فوق سائر المخلوقات في المنزلة: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾[2] .

وطالب الملائكة بالسجود لآدم ، فالإنسان هو محور هذه الحضارة وسعادته غايتها وهدفها[3] .

الثالثة : الحضارة الإسلامية حضارة عالمية ومعنى ذلك أنها ليست محصورة في جنس واحد من بني الإنسان أو في مجموعة أجناس تطبيقاً لقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[4] .

والواقع التاريخي يزيد هذا المعنى تأكيداً ، فقد وسعت هذه الحضارة سكان الدنيا كلها رغم اختلاف عقائدهم وأنماط حياتهم الفكرية والاجتماعية والاقتصادية وتعدد أجناسهم ولغاتهم .

من دخل منهم في دين الإسلام ومن بقي منهم في ظل الحضارة الإسلامية على دينه القديم[5] .

فالإيمان بالله وحده وتوحيده أساس لالتقاء البشرية وعدم تفرقها شعوباً هو الأصل في دعوة الأنبياء والمرسلين ــ عليهم الصلاة والسلام ــ الأمر الذي جعل القرآن الكريم يطلب أن يحتكم الناس جميعاً إلى جوهر الرسالة

---

(١) من روائع حضارتنا ، د . مصطفى السباعي : ٤٧ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٧٠ .

(٣) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية : ٢٠ .

(٤) سورة سبأ : الآية ٢٨ .

(٥) المرجع في تاريخ الحضارة الإسلامية : ٢٢ .

الإلهية وإلى أصولها العالمية الثابتة .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَ نَعْبُدَ إِلاَ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

وهذه دعوة إلى وحدة عالمية وهي هدف من أهداف الإسلام الإنسانية العالمية[2] .

(والدليل الواضح على عالمية الحضارة الإسلامية أن كل البيئات والشعوب التي عاشت هذه الحضارة قد استطاعت أن تطور حياتها معنوياً ومادياً تطويراً واضحاً في ظلها)[3] .

الرابعة : الحضارة الإسلامية حضارة متطورة ، لما كانت رسالة الإسلام هي خاتم الرسالات السماوية وكان الإسلام خاتم الأديان ورسوله الكريم خاتم الرسل . فإن من الضروري أن تكون الحضارة المؤسسة على هذه الرسالة الخاتمة حضارة متطورة تستطيع أن تسع تطورات الحياة الإنسانية كلها بحيث تواجه ما يجد في حياة الإنسان من تطورات ولا تقف جامدة أمام متغيرات الحياة البشرية في واقعها الفردي والاجتماعي وقد دعا الله تعالى المسلمين إلى تدبر القرآن الكريم وفهمه وفقهه قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾[4] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٦٤ .

(٢) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ، د . محمد البهي : ٤١٣ ــ ٤١٤ ؛ والبناء الحضاري في القرآن الكريم ، عبد السلام الكبيسي : ١٥٤ .

(٣) المرجع في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية : ٢٢ .

(٤) سورة القمر : الآية ١٧ .

ومن ثم فإن علماء المسلمين في استجابتهم لـدعوة الله تعـالى قـاموا بوضع الكثير من قواعد التشريع وأصوله ليواجهوا ما يجد في حياة الناس من وقائع وقضايا مما لم يرد فيه نص من كتاب وسنة[1] .

كذلك اجتهد المسلمون في مواجهة متغيرات الحيـاة اجتهـاداً واسـعاً استجابة لدعوة الله لهم لأعمال الفكر والنظر في الكون من حولهم حتى وقع الاجتهاد في عهد الرسول ﷺ من قبل بعض الصحابة وأقرهم رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لأن في ذلك مصلحة للمسلمين .

فحينما نزلت قريش بجانب الوادي ونزل المسلمون بجانب بدر ، جـاء الحباب بن المنذر وقال : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلاً ، أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قـال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة .

فقال يا رسول الله : فإن هذا ليس بمنزل .

وأشار عليه بأرض تصلح للحرب فقال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ :

((لقد أشرت بالرأي ونهض ومن معه من الناس فأتى أدنى ماء مـن القوم فنزل عليه))[2] .

(وعلى هدى الرسول ﷺ سار أصحابه من بعده وتبعهم بإحسان علماء المسلمين وفقهاؤهم فلم تصادفهم واقعة ولم تجد أمامهم حادثة ، إلا وكان لهم فيها رأي واجتهاد وحل فخلفوا لنا تلك الثروة الكبيرة من العلوم والفنون كانت وما تزال معلماً بارزاً من معالم الحضارة الإسلامية ومـصدراً مهمـاً مـن مصادر التطوير الإيجابي في الحضارات التي جاءت على أثـر الحـضارة

---

(١) المرجع في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية : ٢٥ .

(٢) سيرة ابن هشام : ١ /٦٢٢ .

الإسلامية)[1] .

الخامسة : الحضارة الإسلامية تؤمن بالفكر والعلم وسيلة للتقدم والرقي (فإنها خاطبت العقل والقلب معاً فأثارت العاطفة والفكر في وقت واحد وهي ميزة لم تشاركها فيها حضارة في التاريخ)[2] .

وأن أولى آيات القرآن الكريم تحض على العلم والتعليم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[3] .

ويمجد الإسلام العلماء ويفرق في الحكم بينهم وبين العمامة ويخاطب الإسلام والعقل ويحض على التفكير في خلق الكون[4] .

وقد ذكرنا هذا بتفصيل في الفصلين الأول والثالث ، وسر العجب في هذه الخاصة من خصائص حضارتنا أنا استطاعت أن تنشئ نظاماً للدولة قائماً على مبادئ الحق والعدالة مرتكزاً على الدين والعقيدة دون أن يقيم الدين عائقاً ما دون رقي الدولة واطراد الحضارة ، بل كان الدين من أكبر عوامل الرقي فيها فمن بين جدران المساجد في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وفاس والقيروان وبخارى وطاشقند انطلقت أشعة العلم إلى أنحاء الدنيا قاطبة.

إن الحضارة الإسلامية هي الوحيدة التي لم يفصل فيها الدين عن الدولة مع نجاتها من كل مآسي المزج بينهما كما عرفته أوربا في القرون الوسطى[5] .

---

(١) المرجع في الحضارة العربية الإسلامية : ٢٥ .

(٢) من روائع حضارتنا ، د . مصطفى السباعي : ٤٨ .

(٣) العلق : ١ .

(٤) المرجع في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية : ٢٦ .

(٥) من روائع حضارتنا : ٤٨ .

السادسة : الحضارة الإسلامية تمزج بين عالم المادة وعالم الروح لقد خلق الله الإنسان من مادة وروح وأمده بكل أسباب الحياة في جانبيها المادي والروحي فهيأ للجسم البيئة الصالحة التي يعيش فيها على وجه الأرض ، وهيأ سبحانه وتعالى للجانب الروحي غذاءه من وحي السماء الذي نزل إلى الإنسان على يد رسل الله تعالى ، فالإنسان في مفهوم الحضارة الإسلامية ، هو ذلك الكائن المادي والروحي وأن حياته الصالحة المستقيمة هي تلك التي يراعى فيها هذا الجانب وذاك .

ويظهر ذلك جلياً في تعاليم الإسلام وتشريعاته ، فإلى جانب الدعوة إلى الإيمان والحرص على العبادة نجد الدعوة إلى الأخذ بالأسباب المادية للحياة ويظهر ذلك جلياً في قوله تعالى :

﴿ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] .

وقوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾[2] .

وعلى هذا الأساس أقام المسلمون صرح الحضارة الإسلامية بمعطياتها الروحية والمادية[3] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١ ــ ٥ .

(٢) سورة الملك : الآية ١٥ .

(٣) المرجع في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية : ١٧ .

ويتمثل الجميع بين الروحية المعتدلة والمادية المقتصدة في قوله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾[1].

السابعة : الحضارة الإسلامية : اهتمت بالمبادئ الأخلاقية أن الحضارة الإسلامية جعلت المبادئ الأخلاقية المحل الأول في كل نظمها ومختلف ميادين نشاطها وهي لم تتخل عن هذه المبادئ قط ولم تجعلها وسيلة لمنفعة دولة أو جماعة أو أفراد ففي الحكم وفي العلم وفي التشريع وفي الحرب وفي السلم وفي الاقتصاد وفي الأسرة روعيت المبادئ الأخلاقية تشريعاً وتطبيقاً وبلغت في ذلك شأناً سامياً بعيداً لم تبلغه حضارة في القديم والحديث وقد تركت الحضارة الإسلامية في ذلك آثاراً تستحق الإعجاب وتجعلها وحدها من بين الحضارات التي كفلت سعادة الإنسانية سعادة خالصة لا يشوبها شقاء[2] .

الثامنة : الحضارة الإسلامية مبنية على التسامح الديني ، وفي هذه الخاصية العجيبة تميزت هذه الحضارة غذ لم تعرف التسامح الديني حضارة مثلها قامت على الدين .

إن الذي لا يؤمن بدين ولا بإله لا يبدو عجيباً إذا نظر إلى الأديان كلها على حد سواء وإذا عامل اتباعها بالقسطاس المستقيم ، ولكن صاحب الدين الذي يؤمن بأن دينه حق وأن عقيدته أقوم العقائد وأصحها ثم يتاح له أن يحمل السيف ويفتح المدن ويستولي على الحكم ويجلس على منصة القضاء ثم لا يحمله إيمانه بدينه واعتزازه بعقيدته على أن يجور في الحكم أو ينحرف عن سنن العدالة ، أو يحمل الناس على اتباع دينه أن رجلاً مثل هذا لعجيب أن يكون في

---

(١) سورة القصص : الآية ٧٧ .

(٢) من روائع حضارتنا ، د . مصطفى السباعي : ٤٧ .

التاريخ .

فكيف إذا وجد في التاريخ حضارة قامت على الدين وشادت قواعدها على مبادئه ثم هي من أشد من عرف التاريخ تسامحاً وعدالة ورحمة وإنسانية[١] .

وهذه الخاصية يؤكد عليها القرآن الكريم ويصف المتقين بقوله تعالى: ﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[٢] .

التاسعة : الحضارة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان .

لما كانت الحضارة الإسلامية إنسانية وعالمية فإن مقتضى إنسانيتها وعالميتها أن تكون صالحة للتطبيق في كل البيئات الإنسانية وفي أي بقعة من الأرض ، وأن تكون كذلك صالحة على مر الأزمان وتطاولها باعتبارها رسالة السماء الخاتمة لكل الرسالات ويمكننا أن نتبين مدى هذه الصلاحية إذا نظرنا في الأسس العقائدية والتشريعية والأخلاقية التي جاء بها الإسلام ، والتي قامت عليها الحضارة الإسلامية[٣] .

فالإسلام خاتم الأديان وهذا يقتضي صلاحيته الأبدية لكل زمان ومكان يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا** ﴾[٤] .

---

(١) من روائع حضارتنا : ٤٩ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٣٤ .

(٣) المرجع في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية : ٢٤ .

(٤) المائدة : ٣.

المبحث الثاني

واقع الحضارة الإسلامية

المجتمع العربي قبل نزول القرآن :

لمعرفة تأثير الحضارة القرآنية في الحضارة العربية خاصة والحضارة عامة لا بد من معرفة واقع المجتمع الذي حمل رسالة الإسلام إلى الدنيا كلها.

أحوال المجتمع العربي الاجتماعية :

والعلاقات الاجتماعية هي علاقات أسرية وعلاقات القبائل المختلفة بعضها ببعض (فالعرب في الجزيرة كانوا قسمين : بدواً ، وحضراً)[1]

أما البدو فقد اتخذوا البادية مقاماً يعيشون على ما تنتجه ماشيتهم ويتخذون من أصوافها لباساً ومن أشعارها مساكن ويعتمدون على الطبيعة في تغذية حيواناتهم .

ومن وسائل عيشهم : الغارة ، والسلب ، والتي كانت مصدر العداء والتناحر مما دفع بعض القبائل الضعيفة للاحتماء بغيرها ولكن قل أن تدوم مثل هذه المخالفات إذ سرعان ما ينقلب المتحالفون أعداء متحاربين ويطلق المؤرخون على هؤلاء اسم الأعراب ويتميز خلقهم بالبساطة وجفاء القول[2] .

أما الحضر فهم سكان المدن يعيشون على التجارة والزراعة التي درت

---

(١) منهج القرآن في تطوير المجتمع ، د . محمد صالح عطية . رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية العلوم الإسلامية . جامعة بغداد : ٨ .

(٢) فجر الإسلام ، أحمد أمين : ٩ ؛ وتاريخ الإسلام السياسي ، حسن إبراهيم حسن : ٦٤/١ ؛ ومحاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ، محمد الخضري : ١ /١٦ ؛ وتنظيم الإسلام للمجتمع ، أبو زهرة : ١٢ ؛ ومنهج القرآن في تربية المجتمع ، د . عبد الفتاح عاشور : ١٦ ؛ ومنهج القرآن في تطوير المجتمع ، د . محمد صالح عطية :٨.

عليهم ثروات طائلة وقد أسسوا قبل الإسلام ممالك تميزت بالمدينة كمملكة اليمن والغساسنة في الشام واللخميين في العراق[1] .

وتعد القبلية الأساس الذي يقوم عليه نظامهم الاجتماعي وتلعب رابطة الدم والقرابة دوراً في تحديد طبقات المجتمع[2] .

فهو يضم :

أـ طبقة الأحرار : وهم أبناء القبيلة المنحدرون من أصل واحد يجمعهم الدم والنسب يتساوون في الحقوق والواجبات فالفرد جزء من القبيلة ينضوي تحت لوائها ويعيش لها ، والفرد الذي لا يجارى عرف القبيلة نبذته وأهدرت حقوقه وبذلك لا يجد أمامه إلا أحد سبيلين أما أن يلجأ إلى قبيلة أخرى ويصبح مولي لها أو يتخذ الصحراء ملاذاً فيكون النهب والسلب وقطع الطريق وسيلة له ، وأهم الواجبات التي تقلى على أبناء القبيلة الأخذ بالثأر ممن يعتدى مهما كلف القبيلة من مال ودم ، لأن نصرة الأخ وابن العم دين لا يستطيع أحدهم تجاوزه ولهذا قالوا :

(أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)

وكانوا ينصرون إخوانهم وبني عمهم نصراً حقيقياً على كل حال في

---

(١) فجر الإسلام ، أحمد أمين : ١١ ؛ وتاريخ الإسلام السياسي ، حسن إبراهيم حسن : ١ /٦٥ ؛ ومحاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ، محمد الخضري : ١٦ ؛ وتنظيم الإسلام للمجتمع ، أبو زهرة : ١١ ــ ١٢ ؛ ومنهج القرآن في تربية المجتمع ، د . عبد الفتاح عاشور : ١٧ ؛ ومنهج القرآن في تطوير المجتمع ، د . محمد صالح عطية: ٨ .

(٢) محاضرات في تاريخ العرب ، د . صالح أحمد العلي : ١ /١٣٤ ؛ والقرآن والمجتمع الحديث ، عبد الرزاق نوفل : ٢٤ ؛ والإسلام نظام إنساني ، مصطفى الرافعي : ١٠ .

صوابهم وخطأهم وعدلهم وظلمهم[١] .

ب ــ طبقة الموالي :

وهي من انضم إلى القبيلة ممــن لا تــربطهم بأفرادهــا رابطــة دم ، ووضعوا أنفسهم تحت حمضياتها عن طريق الحلف أو الجوار أو العتق وقد يكون الموالي فرداً أو جماعة ، والجوار يكون بالطلب أو القيام بعمل يفهــم منه هذه الرابطة[٢] .

وحقوق الجوار لخصها هاني بن مسعود الشيباني حين أجار النعمان بن المنذر بقوله :

(لقد لزمني ذمامك وأنا مانعك مما أمنع منه نفسي وأهلي وولدي منــه ما بقي من عشيرتي إلا دنين رجل)[٣] .

(أما الحلف فكان بعقد الإيمان والمواثيق والعهود)[٤] .

ومن مواثيقهم بين الحليفين (دمي دمك ، وثأري ثأرك وحربي حربك ، وسلمي سلمك ، ترثني وأرثك ، وتطلب بي واطلب بك ، وتعقل عني وأعقل بك)[٥] .

---

(١) محاضرات في تاريخ العرب ، د . صالح أحمد العلي : ١ /١٣٤ ؛ ومحاضرات فــي تاريخ الأمم الإسلامية ، محمد الخضري : ١ /٢١ ؛ وفجر الإسلام ، أحمــد أمــين : ١٠؛ ومنهج القرآن في تربية المجتمع : ١٧ ــ ١٩ .

(٢) محاضرات في تاريخ العرب : ١ /١٣٤ ؛ والحضارة الإسلامية ، خودة بخش : ١٢ ؛ ومنهج القرآن في تربية المجتمع : ١٧ ــ ١٩ ؛ ومنهج القرآن في تطوير المجتمــع ، د . محمد صالح عطية : ٩ .

(٣) الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني : ٢ /١٢٦ .

(٤) منهج القرآن في تطوير المجتمع ، محمد صالح عطية : ٩ .

(٥) جامع البيان عن تأويل القرآن ، الطبري : ٨ /٢٧٥ ــ ٢٧٦ .

ج ــ طبقة الأرقاء :

وأغلبهم من أسرى الحرب وبعضهم نتيجة شراء ، وهــؤلاء يكتنــف حياتهم وضع اجتماعي سيئ فقد سلبتهم الأوضاع الطبقية الحقوق الإنــسانية فعاشوا بذل ، لا يملكون من أمرهم شيئاً ويسند إليهم أخس الأعمال[1] .

وبناء على ما ذكر فإن العربي في فترة ما قبل الإسلام يعيش في طبقية مجتمعه ويفرض عليه وضعه هذه أنواعاً من الالتزام لا يــستطيع أن ينفــك عنها ولا أن يخرج عما وضعه الآباء ، والقرآن الكريم صور هذا الالتــزام بقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾[2] .

أما المرأة فكانت مهانة يقع عليها الظلم وكانوا يتشاءمون منها وقد ذكر القرآن عنهم بقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِــنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَــاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[3] .

وكانت بعض القبائل تأد البنات خشية العار والحاجة .

(وكانت الأسرة في أغلب أحوالها تقوم على الزواج ولكن النسب كمــا كان يثبت بالنكاح يثبت بالسفاح أيضاً .

إلا أن مكانة الأخوة تتأثر بتفاوت منزلــة الأمهــات فليــست الحليلــة

---

(١) محاضرات في تاريخ العرب ، أحمد صالح العلي : ١ /١٣٦ ؛ ومنهج القــرآن فــي تربية المجتمع ، د . عبد الفتاح عاشور : ١٨ ــ ١٩ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٧ .

(٣) سورة النحل : الآية ٥٨ ــ ٥٩ .

كالخليلة، ويثبت النسب بالإلحاق والتبني وكذلك ، وكان للرجل حق الـزواج بأي عدد دون قيد)[1] .

ومجتمع لا شريعة تهديه ، ولا تعاليم دينه تقومه يكون عرضه للانزلاق في الشهوات[2] .

هذه هي صورة الحياة الاجتماعية لعرب الجاهلية قبل نزول القرآن

الحالة السياسية

إن عرب الجزيرة قبل نزول القرآن كانوا قبائل متفرقة وفـي عـداء مستمر فلا سلطان رادعٌ غير عرف القبيلة ، والذي اتخذ قوة حفاظـاً علـى كيان القبيلة ولم يكن له من السلطة الرادعة ما يسيطر فيـه الحـاكم علـى المحكومين فلا سلطة تنفيذية تضرب على أيدي الخارجين ولا قضاء يحـتكم إليه فيصدر العقاب الملائم للجريمة بل أن الشخص يأخذ حقه المسلوب وثأره بيده وما على القبيلة إلا أن تنصره وتحميه[3] .

ويصور آرنولد في معرض كلامه عن الوضع السياسي بأن حرية الفرد كانت مطلقة يقول :

---

(١) تنظيم الإسلام للمجتمع ، أبو زهرة : ١٣ ؛ محاضرات في تاريخ العرب ، د . صالح أحمد العلي : ١ /١٤٦ ؛ المرأة في القرآن والنية ، محمد عزة روزة : ١٦ .

(٢) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ، محمد الخضري : ١ /٢٠ ؛ وتاريخ الإسـلام السياسي ، د . حسن إبراهيم حسن : ١ /٦٥ .

(٣) تاريخ الإسلام السياسي ، د . حسن إبراهيم حسن : ١ /٥١ ؛ ومنهج القرآن في تربية المجتمع ، د . عبد الفتاح عاشور : ٢٤ .

(له مطلق الحرية في أن يرفض علي رأي الأغلبية من أبناء قبيلته)[1]

وكانت الجزيرة مسرحاً لحروب طاحنة ومنازعات دائمة أريقت فيها الدماء واستنفذت الأموال ورملت النساء ويتمت الأطفال وفرقت الجموع وزرعت الحقد والضغينة وانهكت القوة والذي يتفحص أسبابها لا يجد مسوغاً لاشتعال أوزارها بل يجد حلولاً سهلة دون تطاحن فكثيراً ما كانت الحرب بسبب الاختلاف على السيادة أو التسابق على موارد الماء ومنابت الكلأ ، وأيام العرب التي حفظتها لنا كتب التاريخ والأدب خير شاهد على ذلك[2] .

ومن أيام العرب على سبيل المثال :

(حرب البسوس ، داحس والغبراء ، أيام الفجر الأول والثاني والثالث، يوم البردان ، يوم خزاز ، يوم عين أباغ ، يوم الكلاب الأول ، يوم أوارا الأولى ، يوم الهباءة ، يوم الكلاب ، يوم ذي قار)[3] .

الحالة الاقتصادية

إن موقع مكة وطبيعة أرضها ومركزها الجغرافي دفع القرشيين للعمل بالتجارة ، لأن أرضها لم تكن أرضاً زراعية ... حتى أنهم بلغ من

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ، سير توماس وآرنولد ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون : ٥٢ .

(٢) تاريخ العرب السياسي ، حسن إبراهيم حسن : ١ /٥٢ ؛ ومحاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية : ١ /٢٤ .

(٣) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير : ١ /٣٠١ ــ ٣١٠ ــ ٣٢٥ ــ ٣٣١ ــ ٣٣٤ ــ ٣٣٥ ــ ٣٤٣ ــ ٤١٤ ــ ٤١٦ ؛ والعقد الفريد ابن عبد ربه : ٥ /١٥٠ ، ٢١٣ ــ ٢٥١ ــ ٢٥٢ ؛ ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي : ٢ /١٢٤ ــ ١٢٥ ؛ وتاريخ العرب ، د . فليب حتى : ١ /١٢٠ ــ ١٢١ ؛ وأيام العرب في الجاهلية محمد أحمد جاد المولى : ١٤٢ ــ ٢٤٦ ــ ٣٢٢ ــ ٣٣٧ .

اهتمامهم بالتجارة أنهم كانوا يرحلون رحلتين في العام وقد ذكر القرآن الرحلتين ، بقوله تعالى :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾[1] .

وكان لهذا النشاط أثر في ثراء البعض حيث يمكننا أن نميز طبقتين اقتصاديتين هما :

طبقة الأثرياء ــ التي تتحكم أموالهم في الحياة الاقتصادية وطبقة الفقراء ــ الذي أوصدت طبيعة حياتهم الرعوية أبواب الثراء في وجوههم وكان لهذه الفجوة الاقتصادية بين الطبقتين اثر في اختلال التوازن الاقتصادي بينهما[2] .

ومما زاد على هذا الاختلال الاقتصادي التعامل بالربا والبيع مجازفة، وبيع المنابذة[3] ، وبيع الملامسة[4] والحصاة[5] ، والنجش[6] ، وبيع المدين والغش والمخادعة كانا جاريين في الأسواق وكانوا يبلون الحنطة والشعير ليزيدوا وزنها ويخفون الرديء داخل الطيب ويصرون الإبل والغنم حتى

---

(١) سورة قريش : الآية ١ ــ ٢ .

(٢) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، أحمد إبراهيم الشريف : ٨١ .

(٣) المنابذة : هو أن يقول شخص لآخر : أنبذ ما معي وتنبذ ما معك فيشتري كل واحد منهما من الآخر ولا يدري كم مع صاحبه . نيل الأوطار للشوكاني : ٥ /١٥٩ .

(٤) بيع الملامسة : هو أن يقول الرجل للرجل : أبيع ثوبي بثوبك ولا ينظر أحد منهما إلى ثوب الآخر ، ولكنه يلمسه لمساً .

(٥) بيع الحصاة : هو أن يقول شخص لآخر : بعتك من هذه الأثواب ما وقعت عليه هذه الحصاة ويرميها ومن هذه الأرض ما انتهت إليه في الرمي . نيل الأوطار للشوكاني : ٥ /١٥٦ .

(٦) بيع النجش : هو أن يعطي الرجل ثمناً لسلعة وهو لا يريد شرائها ليقتدى به السوام .

يوهموا أنها كثيرة اللبن[1] .

فكان الفارق الكبير في الحالة الاقتصادية يخلق توتراً وينمي حقداً خاصة إذا كانت وسائل الشراء غير نظيفة مما دفع للسلب والنهب والقتل وجعل الحياة غير آمنة[2] .

الحالة الدينية والفكرية

من الحقائق المعروفة أن الجزيرة العربية توزعتها أديان مختلفة لم تعط صورة للآله الواحد زيادة على ما زادوه من الخرافات التي لا حجة لها تدعمها ولا برهان يؤديها ولما لم يكن هناك دين ولا شريعة تهدى عشعشت الأفكار الباطلة وسيطر الجهل وفرض الهوى نفسه مما جعلهم لا يدركون حقيقة الألوهية بل شط بهم الفكر فلم يدركوا إلا المحسوس فعظموا الحجارة لتقربهم إلى الله[3] .

وهذا ما دفعهم إلى : (أنه كان لا يضعن من مكة ضاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة فحيث ما حلوا وضعوه وطافوا به كطوفهم بالكعبة تيمناً بها وصبابة بالحرم وحباً له[4] .

وبلغ أمر تعظيم الأصنام أن اتخذ أهل كل دار صنماً يعبدونه ومن طقوسهم أن لا يسافر أحد إلا أن يكون التمسح بالصنم آخر ما يفعله ويبدأ قدومه أول ما يبدأ به .

---

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، أحمد إبراهيم الشريف : ٢٦٧ ..

(٢) منهج القرآن في تطوير المجتمع ، محمد صالح عطية : ١٥ .

(٣) منهج القرآن في تطوير المجتمع : ١٦ .

(٤) الأصنام ، لابن الكلبي : ٦ ؛ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية : ٥٤ ؛ تلبيس إبليس لابن الجوزي : ٥٥ .

ولذلك كان استغرابهم شديداً حينما بعث الرسول ﷺ بالتوحيد)[1] .

وقد نقل القرآن على لسانهم :

﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[2] .

وكانوا يتعصبون لأصنامهم لأنهم يرون فيها امتداداً لمجد آبائهم[3] .

ولم يكتفوا بالعبادة بل قربوا لها القرابين[4] وعبدت النار لأنها ترمز لأله الخير بالنور ولإله الشر بالظلمة[5] .

وأثرت اليهودية في اليمن ووادي القرى والمسيحية في قبائل تغلب وغسان وقضاعة في الشمال وفي وسط هذه الاعتقادات وبين خرافاتها وتعقيداتها ظهرت دعوة التوحيد .

لماذا اختار الله العرب لحمل رسالة الإسلام وذلك لتميزها بمجموعة من المؤهلات واصطفاء الله سبحانه وتعالى لها بقوله :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[6] .

ومن أهم المؤهلات التي رشحتهم من بين المجتمعات الإنسانية ما يأتي:

١ــ محافظة الأمة العربية على نقائها قلم تدب فيها أسباب التدهور والانحلال الحضاري فكانت بعيدة عن فرق فارس وطغيان الروم وفلسفة

---

(١) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ، د . محمد يوسف موسى : ١٨ .

(٢) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ، د . محمد يوسف موسى : ٥ ؛ سورة ص : الآية ٥ .

(٣) منهج القرآن في تطوير المجتمع : ١٧ .

(٤) تاريخ الإسلام السياسي ، د . حسن إبراهيم حسن : ١ /٧٢ .

(٥) المصدر نفسه : ١ /٧٢ .

(٦) سورة الأنعام : الآية ١٢٤ .

اليونان وظلت طبيعتهم لم تتأثر بما حولها[1] .

٢ــ صفاتهم الفطرية الطيبة ، كالشجاعة وعدم الخوف وعدم الخنوع والمحافظة على العهد والاستماتة للذود عن الأرض[2] .

٣ــ تزينهم بمكارم الأخلاق فمن أخلاقهم النجدة ، والوفاء ، واقراء الضيف ، والعفة ، والنبل .

٤ــ سلامة الطباع وأبرز ما يدل على سلامة طباعهم عقد المحالفات لترك الظلم وإقامة العدل .

٥ــ لغتهم العربية بما امتازت به من خصائص جعلتها أنسب لغة لأداء الأفكار والتعبير عن أدق تفاصيل المعاني والتأثير في النفوس .

٦ــ موقع الجزيرة العربية بين الأمم المختلفة تعضده وحدة اللغة والجنس والأرض والتاريخ .

٧ــ وجود الأديان المختلفة والعقائد المتباينة في جزيرة العرب هيأ الجو لمبلغ الرسالة أن يرد الناس جميعاً إلى الحق عن طريق محاجة أصحاب تلك العقائد بنور الهدى .

٨ــ مكانة البيت الحرام الذي هو مهد دعوة إبراهيم ــ عليه السلام ــ فقد اختيرت هذه البقعة المباركة لتكون مهد الرسالة ومبعث النور .

٩ــ أمية الأمة العربية حيث أن أمة العرب تغلب عليها الأمية لم تتعقد أفكارها ولم تتأثر بفلسفات الأمم التي تجاورها لكي تصان الرسالة وتظهر

---

(١) منهج القرآن في تطوير المجتمع : ١٩ ــ بتصرف .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ١١٩ ــ ١٢٠ .

المعجزة واضحة لا يشوبها كدر الدعوات البشرية[1] .

لهذه المؤهلات اختار الله العرب ليكونوا حملة رسالته ورشحهم للدفاع عن دينه .

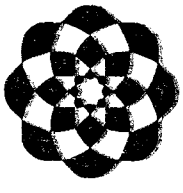

(١) مقدمة ابن خلدون : ١١٩ ــ ١٣٠ ؛ ومبادئ الإسلام للحودودي : ٤٢ ؛ ولماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب ، أحمد موسى سالم : ٢٢٠ ــ ٢٤٢ ؛ ومكة والمدينة في عهد الرسول ، أحمد إبراهيم الشريف : ٢٣٦ ــ ٢٤٥ ؛ وفقه السيرة ، محمد سعيد رمضان البوطي : ٣٩ ــ ٤٣ ؛ ومدخل الفقه الإسلامي ، د . محمد سلام مدكور : ١٣ ؛ والحضارة الإسلامية وأثرها في الترقي الإسلامي ، جلال مظهر : ١٣٥ ــ ١٤٣ ؛ ومنهج القرآن في تربية المجتمع ، د . عبد الفتاح عاشور : ٤٧ ــ ٥١ ؛ ومنهج القرآن في تطوير المجتمع : ٢٠ .

المبحث الثالث

أثر الحضارة القرآنية في الحضارة الحديثة

إن الحضارة الإسلامية هي التنظيم القائم على العقيدة الإلهية فأنشأت مجتمعاً فريداً قدم الإنجاز والإنتاج الفكري المتميز النظري والعملي المتنوع الاتجاهات المتجانس الروح الموحد الهدف الذي أثبته الإسلام ورعاه ووجهه.

والإسلام هو الشرعة والمنهاج الذي أوحاه الله إلى الرسول ﷺ ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾[1] .

وهذا الإنتاج شاركت فيه أمم متباينة وأجناس متعددة جمعها الإسلام ووحد بينهما وصاغها في وحدة روحية وأوجد منها مجتمعاً يحلق فوق حدود القومية[2] .

وهذه الحضارة التي كان القرآن هو الأصل فيها أحدثت تغييراً كبيراً في المجتمع العربي بصورة خاصة والعالم بصورة عامة .

فكان لعلماء المسلمين دور كبير وأثر واضح على الحضارة الحديثة فقد كان لهم نتاجات علمية عدت الأساس في تلك العلوم وما ذاك إلا بفضل القرآن الكريم الذي فتح باب العلم على مصراعيه فلم يكن القرآن كتاب هداية فحسب بل تحدث إلى عقول الناس عن مشكلات وحقائق الوجود العلمية .

اتجه المسلمون للبحث عن أسرار الكون وكان لهذا الاتجاه تأثير في الحضارة في العالم فقد ترك المسلمون أثراً في ميادين العالم كافة أدهشت عقول المنصفين منهم فهذا (غوستاف لوبون) في تحدثه عن مناهج العرب

---

(١) سورة الجاثية : الآية ١٨ .

(٢) المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، د . إبراهيم سلمان الكروي : ٧ .

العلمية يصحح ما يزعمه الأوربيون فيقول : (يقول الأوربيون أن بيكن أول من قال بالتجربة والترصد الذين هما ركن المباحث العلمية الحديثة ولكن الإنصاف يقضي بأن نعترف بأن الفضل في ذلك للعرب وحدهم) .

فقد أبدى هذا الرأي مع ذلك جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ولا سيما العالم الشهير (هيبولد) فبعد أن ذكر (همبولد) إنما قام على التجربة والترصد هو أفضل ما في العلوم ، قال : (إن العرب ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء) .

وقال (سيوسيديو) : (أن من أهم ما اتصفت به جامعة بغداد ن منذ البداءة هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدة فيها في استخراج المجهول من المعلوم والعلل من المعلولات وفي عدم التسليم بما لا يقوم على التجربة والترصد وقد كان العرب في القرن التاسع من الميلاد حائزين لهذا المنهج المجدي الذي اقتبسه علماء أوربا بعد زمن طويل ، فقد كان عاملاً في اكتشافاتهم المفيدة) .

حقاً لقد اختبر العرب مسائل العلم وجربوها وكانوا أول من أدرك أهمية هذا المنهاج في العالم وقد ظلوا عاملين به وحدهم زمناً طويلاً قال : (دولنبر) في كتاب (تاريخ علم الفلك) : تعد راصدين أو ثلاثة بين الأغارقة وتعد عدداً كبيراً من الرصاد بين العرب ، وأما في الكيمياء فلا تجد عالماً يونانياً استمد في مباحثه إلى التجربة مع أنك تعد مئات من علماء العرب الذين قامت مباحثهم الكيمياوية إلى التجربة ، وقد منح اعتماد العرب على التجربة مؤلفاتهم دقة وإبداعاً لا ينتظر مثلهما من رجل تعود درس الحوادث في الكتب ولم يبتعد العرب عن الإبداع إلا في الفلسفة التي كان يتعذر قيامها

على الترصد والتجربة[1] ، والذي نريد أن نجعله في هذا المبحث هو الطرق العلمية التي تأثر بها إعلام عهد النهضة والازدهار في الغرب في العصر الحديث والتي تفجرت ينابيعها على أيدي العلماء المسلمين في عهد النهضة وازدهارها في العلوم الدينية والأدبية والمادية كالأئمة الأربعة ، والبخاري ، والكندي ، والطبري ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن الهيثم[2] .

والبيروني[3] ، والغزالي ، وابن رشد ، وابن الطفيل ، وابن خلدون ،

---

(١) انظر حضارة العرب للدكتور غوستاف لوبون : ٤٣٥ ــ ٤٣٧ ؛ وأثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية تأليف روبر بريغالت : ١٥٢ ؛ وأوربا والإسلام ، د . عبد الحليم محمود : ١٦٠ .

(٢) ابن الهيثم : هو الحسن بن الحسن ابن الهيثم أبو علي المهندس البصري ، عالم جليل في علوم الطبيعة وبخاصة في فرعها البصريات ، وفي علوم الرياضة والهيئة والفلك والهندسة ، وكان يتقن الأخير اتقاناً عظيماً محيطاً بغوامضه ومتفنناً فيه ، توفي سنة ٤٣٢ هجرية ، من أهم تصانيفه : مصادرات أقليدس ، مساحة الجسم الطافي ، الأشكال الهلالية ، صورة الكسوف ، اختلاف منظر القمر ، مقدمة الضلع المسبع ، رؤية الكواكب ، تربيع الدائرة ، حركة القمر ، استخراج أضلع المكعب إلى غيرها من الكتب .

أثر الثقافة الإسلامية ، هامش ١٤٨ ــ ١٤٩ .

(٣) البيروني : هو محمد بن أحمد الريحان البيروني الخوارزمي المتوفى سنة ٤٤٠ هجرية ١٤٨ ميلادية ، فيلسوف رياضي مؤرخ من أهل خوارزم ، أقام في الهند بضع سنين ومات في خوارزم ، أطلع على فلسفة اليونانين والهنود ، وعلت شهرته وارتفعت منزلته عند ملوك عصره ، وصنف كتباً كثيراً جداً ، رأى ياقوت فهرسها بمرو في ٦ ورقة منها ، الآثار الباقية عن القرون الخالية (مطبوع) والنجوم ، والجغرافية . انظر اثر الثقافة الإسلامية ، هامش ١٤٨ .

ولا ينكر فضل هؤلاء وإن لم يبلغوا في زمنهم شأن المتـأخرين إلا جاحـد معاند .

وإليكم بيان ذلك على الوجه الآتي :

أولاً : أثر الحضارة القرآنية في مجال العقيدة والشريعة .

فقد كان للإسلام أثر كبير في الحياة العقلية حيث سلك في دعوته إلـى الإيمان بالله وصفاته من علم وقدرة ووحدانية مسلكاً يثير العقل وهو الدعوة إلى النظر إلى ما في هذا العالم من ظواهر كونية فقال :

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَـقَ اللَّـهُ مِـنْ شَيْءٍ﴾(١) .

وقوله :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَـقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾(٢) .

وقوله :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًـا فَفَتَقْنَاهُمَـا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾(٣) .

وقوله :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الـصُّلْبِ

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٨٥ .

(٢) سورة عبس : الآية ٢٤ ــ ٣٢ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٣٠ .

وَالتَّرَائِبِ ﴾[1] .

وقوله :

﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[2] .

وقوله :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾[3] .

فكم لأمثال هذه الآيات من آثار في قوة التفكير ودقة البحث ، وهذا الإمام ابن حزم يقف عند الآية الأخيرة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .... الآية ﴾ .

فيقول : أولاً يصح الاهتبار في خلقهما إلا بمعرفة هيئاتها وانتقال الكواكب في أفلاكها واختلاف حركاتها في التغريب والتشريق ، وأفلاك تداويرها وتعارض تلك الأدوار على رتبة واحدة ، وكذلك معرفة الدوائر والمنطقة والميل والاستواء[4] .

واستدل هذا الإمام ببعض نصوص الدين على كروية الأرض ، فقال: (البراهين من القرآن والسنة فقد جاءت بتكويرها قال الله تعالى :

﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾[5] .

---

(١) سورة الطارق : الآية ٥ ــ ٧ .

(٢) سورة يس : الآية ٤٠ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٩٠ .

(٤) الملل والأهواء والنحل : ٢ /٩٧ .

(٥) سورة الزمر : الآية ٥ .

وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض مأخوذ من كور العمامة وهو إدارتها[1] .

ولم يكن النبي ﷺ يرض عما يخالف الحق ومن أروع الأمثلة على ذلك أنه لما مات ابنه إبراهيم قال الناس : إنما انكسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ : يرد على هذه الاعتقادات الباطلة:

((إن الناس يزعمون أن الشمس والقمر لا ينكسفان إلا لموت عظيم من العظماء ، وليس كذلك ، إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده ، فإذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم)) [2] .

فهذا الحديث وكل الآيات الكريمة السابقة تبعث العقل على النظر في الكون والنواميس وقضاياه العلمية وقد كان لهذه الآيات أثر في نمو الحياة العقلية وفي الانقلاب الهائل الذي حدث في مجال التقدم العلمي في الحضارة الحديثة وما ذلك ألا بفضل الأمر بالنظر والتفكر والتدبر الذي ورد في القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنتهي عظمته في جيل من الأجيال .

ومن القضايا الأساسية التي تأثرت بها الثورات في فرنسا وغيرها من دول الغرب قضية الحرية الفكرية لأن قضية الحرية الفكرية في الإسلام تمتزج مع قضية العلم فهما الجناحان اللذان ترفرف بهما المدنية الإسلامية وهما الصفوان اللذان يحققان مفهوم الحضارة الإسلامية .

---

(١) الملل ، مصدر سابق : ٢ /٩٧ .

(٢) أخرجه الشيخان ، البُخَارِيّ : ٥٣٥/١ ؛ ومُسلِم : ٦٢٣/٢ . الصلاة هنا تشعر بالخشوع والخشوع لله وقدرته وحكمته التي تتجلى في نواميس الكون .

ولا شك في أن فكرة الحرية الإسلامية هي التي أثرت في الشعوب الأوربية وبثت في نفوس أبنائها الشعور بحقوق الإنسان وكيف تجاهد لنيل استقرارها وتحررها من سلطان الكنيسة ورجالها في العصور الوسطى وظهورها دعامة من أقوى الدعائم التي قامت عليها حقوق الإنسان في العصر الحديث .

ويثبت التاريخ أن الوحدة الحضارية التي قامت على مبادئ القرآن وتعاليمه وكانت أسبق من المجتمعات المعاصرة من حيث تحرير الأفراد من الأنماط الطبقية التي ترسم للفرد وضعه ومكانه ومصيره ووفرت له أسباب الحرية الفردية من نواحيها كلها بما في ذلك حرية التنافس الاقتصادي والسياسي والأخلاقي والثقافي .

وفضلاً عن الحرية الفردية التي خلصت الإنسان من أغلال الوراثة الجماعية والطبقية ، نجد أن الإسلام قد حرر الفرد من الماحية الغيبية والروحية إذ جعله مسؤولاً مباشراً أمام الله دون أن يكون هناك وساطة ما بينه وبين الله ، وبهذا جمع الإسلام بين الحرية العلمية في واقع الحياة والحرية الروحية في مجال الغيبي[1] .

فالمتتبع لمفهوم الحرية في الثقافات المختلفة وخاصة مفهوم المدنية الحديثة ويوازن بينه وبين مفهوم الحرية في الإسلام يتضح له خطأ زعم القائلين بأن العالم الإنساني مدين للغرب بمبدأ الحرية للفرد فالحق أن الإسلام هو أول مؤسس لهذه الحرية بمفهومها الإسلامي الصحيح وأن القرآن هو أول

---

(١) محاضرات في الحضارة الإسلامية ، لمحمد العلائي ، نقلاً عن الفكر الديني : ١٤٢ للدكتور محمد عفت الشرقاوي .

كتاب مقدس نادى بحرية الاعتقاد وهو الذي نادى ولم يزل ينادي بـأن ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾[1] .

وهو الذي بين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكـراه النـاس على هذا الدين[2] .

فأثر المسلمين في تحرير الفكر واضح ويرجع الفضل إلى الفيلـسوف المسلم ابن رشد الذي عاش في أسبانيا في إدخال حرية الرأي فقد عـارض أبن رشد وحدة الوجود القديمة والتجسيم المسيحي لعقيدة الإيمان بالله وحـده في الإسلام وتحمس أحرار الفكر في العصر الوسـيط الأوربـي بـشروحه لأرسطو .

ويمكن أن يعتبر بحق أن التيار الفكري الذي نشأ على هذا التحمس لابن رشد كان أصله التفكير المنطقي الحديث الذي كان مـن أصـول الإصـلاح الحديث[3] .

أما أثر الحضارة الحديثة في الشريعة ، فهو مائل في آيـات الأحكـام حيث برهنت في كل الظروف فـي نـصوص القـرآن لإصـلاح الأفـراد والجماعات كافة كما هي ملائمة للإنسانية كلها في الوقت ذاته وذلـك علـى خلاف الأحكام الوضعية التي هي من صنع البشر والتي تكون دائماً خاصـة لا عامة وبعبارة أخرى أن كل أمة تشرع لنفسها ما يلائمها من قوانين وتكون دائمة التغير كلما تطورت الظروف بحكم طبيعة الحياة ولنضرب لذلك مـثلاً

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٦.

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب : ٣ /٣٩١ .

(٣) أوربا والإسلام ، د . عبد الحليم محمود : ١٦٦ .

واحداً بالأحكام الشريعة الإسلامية في الطلاق مقارنة بأحكامه في بعض الشرائع الأخرى وسيكون واضحاً أمامنا أن تشريع القرآن في الطلاق معجز وعلى الرغم من قدمه فكأنه قد نزل على رَسُولَ اللَّه ﷺ الآن ، وهو ثابت لا يتغير حتى قيام الساعة لموفقته للفطرة الإنسانية التي شرعها لها بارئها .

بينما نجد أحكام الطلاق في القوانين الوضعية متغيرة بين الحين والحين وهي في الوقت نفسه خاصة بأمة دون غيرها . فالقانون المدني الفرنسي على سبيل المثال وقف موقفاً وسطاً بينما ذهبت إليه التشريعات الثورية من إباحة الطلاق إلى أبعد مدى وبين التشريعات الكنسية التي تحرم الطلاق فأجاز الطلاق بحكم القاضي في الحالات التالية :

١ــ لكل من الزوجين أن يطلب الطلاق إذا ما ارتكب الزوج الآخر الزنا أو حكم عليه بعقوبة مدنية أو شأنه وفي حالة تجاوز الحدود كأعمال العنف والإهانة الجسمية .

٢ــ الطلاق باتفاق الزوجين مع بعض القيود .

٣ــ وقد أعاد التقنين المدني نظام الانفصال الجسماني بعد أن ألغته الثورة الفرنسية ثم طرأت بعد ذلك تعديلات كثيرة على نظام الطلاق في التشريع الفرنسي فقد ألغي ١٨١٦ م ثم أعيد عام ١٨٨٤ م ثم عدل في عام ١٨٨٦ ، والتشريع المعمول به الآن هو الصادر عام ١٩٤٥ م حيث أجاز الطلاق في الحالات التالية :

١ــ زنا أحد الزوجين .

٢ــ الحكم بعقوبة بدنية شائنة .

٣ــ إذا أساء أحد الزوجين إساءة بالغة أو إهانة جسيمة مما يتعذر به استمرار الحياة الزوجية المشتركة .

وفي إنكلترا صدر أول قانون يبيح الطلاق عام ١٨٥٧ م وفي عام ١٩٣٧ م صدر قانون يبيح الطلاق بشكل واسع ويخرج فيه على تقاليد الكنيسة والمذهب البروتستاني فقد جاء فيه :

ومن أسباب الطلاق ما يأتي :

١ــ زنا أحد الزوجين .

٢ــ الهجرة لمدة ثلاث سنوات .

٣ــ ارتكاب بعض الجرائم المخالفة للآداب .

٤ــ المرض العقلي إذا استمر (٥) سنوات .

وفي عام ١٩٥٠ م صدر قانون دعاوى الزواج ولم يطرأ تعديل جوهري على أساليب الطلاق ولهذا أبقيت الأسباب التي جاءت في قانون ١٩٣٧ معمولاً بها حتى الآن .

وكذلك فعل القانون الإيطالي بالنسبة لتشريع الطلاق[١] ومعنى ذلك أن هذه الشرائع التي جعلتها محلاً للمقارنة بالشريعة الإسلامية في أحكام الطلاق فقد انتهت أخيراً إلى اعتناق المبدأ الإسلامي بعد أن مرت تشريعاتها في مراحل عديدة من التجارب برهنت على أن إباحة الطلاق هي اصلح الأحكام التي تلائم الأمم والإنسانية في كل زمان ومكان وهذا برهان ساطع على إعجاز القرآن في الأحكام التشريعية ودليل قاطع تأثر الحضارة الأوربية

---

(١) انظر مدى حرية الزوجين في الطلاق ، د . عبد الرحمن الصابوني : ١ /٥٣ وما بعدها .

الحديثة بالحضارة القرآنية[1] .

ثانياً : أثر الحضارة القرآنية في مجال العلوم الرياضية :

أما في مجال العلوم الرياضية فقد كانت دراسة الجبر ذائعة لديهم ، وقد تقدم هذا العلم بفضلهم حتى أنه قيل : أنهم مخترعوه ، وفي نهاية القرن الثاني عشر كان يجول تاجر شاب من (بيزا) المسمى (ليوناردو) في الجزائر وإسبانيا فهام بالعلوم الرياضية الجديدة عند العرب ، وبعد رحلات كثيرة أخرى نشر ترجمة تصنيف جليل للخوارزمي[2] في علم الجبر فهو الذي روج بالجبر علامة الكسور الأعشارية الكاملة التي صارت معروفة لتسهليها الحساب باسم (الجورزم) المستنبط من اسم مخترعه العربي الخوارزمي المخترع لعلم الجبر والذي كان له قصب السبق في تطبيق الجبر والهندسة وهو الذي أدخل التماس في حساب المثلثات[3] .

---

(١) نظرات في وجوه الإعجاز القرآني ، بحث للدكتور عبد الستار حامد : ١٦ وما بعدها (غير منشور) .

(٢) الخوارزمي : محمد بن موسى بن شاكر أبو عبد الله الخوارزمي المتوفى سنة ٢٥٩ هـ ــ ٨٧٣ م ، عالم بالهندسة والحكمة والموسيقى والنجوم وهو أحد الأخوة الثلاثة الذين ينسب إليهم جبل بني موسى واسم أخويه (أحمد ، والحسن) وكانت لهم همم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل واتعبوا أنفسهم في شأنها وأنفذوا إلى بلاد الرزم من أخرجها لهم وأحضروا الثقيل من الأصقاع الشاسعة فاظهروا عجائب الحكمة ووضعوا كتاباً يشتمل على كل غريبة أطلع عليه ابن خلكان وقال أنه من أحسن الكتب وأمتعها ، وكانوا مقربين من المأمون العباسي ، إليهم يرجع الفضل في تبين ما عسر فهمه من آراء متقدمي الحكماء . (انظر أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية : ١٤٨)

(٣) أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية : ١١٧ .

ثالثاً : أثر الحضارة القرآنية في مجال علم الفلك .

أما في مجال علم الفلك فقد درسه المسلمون بحماس في مدارس بغداد ودمشق وسمرقند والقاهرة وفاس وطليطلة وقرطبة وغيرها .

تلك المدارس التي وصلت إلى اكتشافات عديدة يمكن إيجازها فيما يأتي:

ادخال التماس في الحسابات الفلكية .

وضع جداول لحركة الكواكب .

تحديد سعت الشمس تحديداً دقيقاً وتدرجه وتقدير وتقدم الاعتدالين تقديراً صحيحاً وأول تحديد صحيح لمدة السنة كما أثبتوا ما في أكبر خط عرضي للقمر ، كما استكشفوا عدم التساوي القمري الثالث المعبر عنه اليوم بالتغيير[١] .

هكذا كان المسلمين قدم راسخة في هذا العلم وبرز فيهم علماء في هذا المجال كالفرغاني[٢] والبيروني ، والبتاني[٣] والخوارزمي .

---

(١) أوربا والإسلام : ١٦٢ .

(٢) الفرغاني : هو أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني ، أحد منجمي المأمون ، وصاحب المدخل إلى علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم وهو كتاب عظيم الفائدة يتضمن ثلاثين باباً (انظر الحكماء ، للقفطي : ٥٦ ؛ واثر الثقافة الإسلامية ، هامش : ١١٧) .

(٣) البتاني : هو محمد بن جابر بن سنان الحرني الأصل ، البتاني المتوفى سنة ٣١٧ هـ ـ ٩٢٩ م ، فلكي مهندس ، اكتشف حركة الأوج الشمسي وانحرافه وتقدم المدار الشمسي وانحرافه والجيب الهندسي ومن مؤلفاته (الزيج) وهو مطبوع ويعرف بزيج البتاني ، قال العالم الفلكي (لا لاند) فيه : (المنجم الشهير البتاني أحد الفلكيين العشرين الأئمة الذين ظهروا في العالم كله ، نشأ في حران ورحل إلى بغداد ثم عاد=

والقرآن الكريم هو الذي دعا إلى التفكر في الكون وقدرة الخالق كما أشار إلى كثير من الظواهر الفلكية بعدد من آياته منها :

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] .

﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾[2] .

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[3] .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾[4].

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾[5] .

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾[6] .

=فمات في طريقه (انظر هامش : ١١٨ من كتاب أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية) .

(١) سورة يس : الآية ٣٨ ــ ٤٠ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .

(٣) سورة النحل : الآية ٨٨ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١ .

(٥) سورة الزمر : الآية ٥ .

(٦) سورة الرعد : الآية ٢ .

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾[1] .

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ .... ﴾[2] .

﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾[3] .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾[4] .

﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾[5] .

ولذلك اتجه المسلمون إلى دراسة هذه الظواهر القرآنية وبرزت جهود لعلماء المسلمين في مجال الفلك ابتدأت بترجمة محمد بن إبراهيم الفـزاري كتاب (السند هند) أو (السدهانتا) وتعني المعرفة بواسطة الشمس.

فكانت الجهود العلمية التي بذلها الفلكيون المسلمون ذات اثر بـالغ ولا سيما :

١ــ الاسطرلاب ، وينسب إلى أبي عيسى الاسطرلابي الـذي وضـع أسس استعمال المسطرة الحاسية الفلكية المعروفة منذ القرن التاسع الميلادي.

٢ــ الجداول الرياضية التي وضعها الخوارزمي وساعدت على القيـام بالحسابات الفلكية اللازمة ثم الفرغاني الذي قاس محيط الكرة الأرضية ولـم يختلف قياسه كثيراً عن المعروف حالياً .

---

(١) سورة البروج : الآية ١ ــ ٢ .

(٢) سورة الطارق : الآية ١ ــ ٣ .

(٣) سورة الفجر : الآية ١ ــ ٥ .

(٤) سورة الليل : الآية ١ ــ ٤ .

(٥) سورة الضحى : الآية ١ ــ ٣ .

٣ــ المزولة ، الذي عرفها التاريخ عن العرب وهي في حقيقتها ساعة تعتمد على ظل الشمس لبيان الوقت .

٤ــ المراصد ، التي أقيمت لرصد القمر وحركة الشمس وخاصة في العراق والشام أيام العباسيين[١] .

هكذا يتضح أثر الحضارة القرآنية على الحضارة الحديثة في شتى المجالات حيث افاضت إشراقها الأول على أوربا وكانت الأساس في نمو الصناعات والاكتشافات في عصرنا الحاضر وأخيراً كان لهم أثر كبير في كشف بقاع العالم المجهولة فقد نشروا رسائل في الرحلات تعرف الناس بأقطار العالم المختلفة التي كانت شبه مجهولة من قبل والتي لم يسبق للأوربين ارتادها ففي خارطة من خرائط الأدريسي ترجع إلى عام ١١٦٠ م فيها منابع النيل بين البحيرات الاستوائية الكبرى مرسومة رسماً دقيقاً ، وهي تلك المنابع التي لم يكتشفها الأوربيون إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[٢] ، كما أنهم فتحوا الطريق البرية إلى الهند وغلى اليمن وكان لها أثر كبير في التجارة والصناعة ومن ذلك صناعة السفن والكتان الفاخر والمنسوجات القطنية والحريرية البديعة والأطلس والسندس والحرير (تافتا) من إيران والحرير المشجر من دمشق ، والحرير بندلكين من بغداد ، ومسلين من الموصل ، والحرير الرقيق من غزة ، والحرير جيرنادين من غرناطة والقماش المصنوع من صوف الجمل ، وجعلت الصياغة الشرقية إلى بروج حيث استعملت لأعداد الصوف الإنكليزي للسوق .

---

(١) المرجع في الحضارة العربية الإسلامية : ٣١٨ .

(٢) أوربا والإسلام ، مصدر سابق : ١٦٢ .

كذلك كانت بضائع الأندلس سبباً في تأسيس المصانع الإيطالية للأشياء المزخرفة ، كما نقلت مصانع السكر من صقلية التي بقي فيها العرب عدة قرون إلى إيطاليا ومن الأندلس إلى جنوب فرنسا ، كما أدخل العرب إلى أوربا بعض الصناعات التي مهدت كل منها إلى الانقلاب المؤثر في العالم بأسره وهي :

١ــ أبرة الملاحين ، التي وسعت أوربا إلى أقصى حدود الأرض

٢ــ البارود ، الذي قضى على سلطنة النبلاء المسلحين .

٣ــ الورق ، الذي مهد السبيل لفن الطبع ، فقد بدأ العرب يصنعونه أولاً من الحرير كما في سمرقند وبخارى ثم صنعوه من القطن كما في دمشق، وبعد ذلك من الكتان ، وبذلك تخلصت أوربا من الجهل والأمية والهمجية بفضل الحضارة القرآنية ، فقد كان أول جزاء أوربا في التحرر والتقدم هو الذي كان تحت نفوذ الثقافة العربية مباشرة ، وهو الداخل في الحدود الإسبانية والمشتمل على قاطلونيا وبزاونس وصقلية[١]

رابعاً : أثر الحضارة القرآنية في ميدان العلوم والفنون .

لقد أفاقت أوربا على صوت علمائنا وفلاسفتنا يدرسون الطب ، والرياضيات ، والكيمياء ، والجغرافية والفلك وفن الزخرفة الخطية في مساجد اشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها[٢] .

ففي مجال الطب الذي أشاد القرآن الكريم به فقد أشاد القرآن بالحكمة وجعلها أعظم الخير والبركة على الإنسان فقال سبحانه وتعالى :

---

(١) انظر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية ، مصدر سابق : ١٦٧ ــ ١٧٣ .

(٢) من روائع حضارتنا ، مصطفى السباعي : ٥٣ .

﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[1] .

وقال :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾[2] .

(ومن الحكمة التطبيب أو الطب قبل سائر ضروب الحكمة وكذلك أطلق المسلمون على الطبيب اسم (الحكيم) ولا يزال هذا الاسم متداولاً بين بعض الناس إلى اليوم فجعل الإسلام هذه الصناعة نعمة يشكرها من أسبغها الله عليه واتخذها وظيفة معترفاً بها ولو لم تكن من أعمال المتدينين .

لهذا أكثر اشتغال الناس بالطب في ظل الدولة الإسلامية من مسلمين وغير مسلمين بالوقت الذي كانت الكنيسة الغربية تحرم صناعة الطب لأن المرض في زعمها عقاب من الله لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن استحقه وظل الطب محجوراً عليه في العالم المسيحي بهذه الحجة إلى ما بعد انقضاء العهد المسمى (عهد الإيمان) عند مستهل القرن الثاني عشر الميلادي)[3].

ومن ثم ابتدأت عند الغربيين حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية وغدت كتب علمائنا تدرس في الجامعات الغربية فقد ترجم كتاب (القانون) في الطب لابن سينا في القرن الثاني عشر ، ثم ترجم كتاب (الحاوي) للرازي وهو أوسع من القانون وأضخم في نهاية القرن الثالث عشر ، وظل هذان الكتابان عمدة لتدريس الطب في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٩ .

(٢) سورة لقمان : الآية ١٢ .

(٣) المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، د . إبراهيم سلمان الكروي : ٢٩٤ .

عشر[1] .

واستمر المسلمون يتقدمون في مجال الطب حتى توصلوا إلى الاختراعات والاكتشافات وكانوا روادها الأوائل .

فأول من اكتشف الدورة الدموية : ابن النفيس ــ المولود سنة ١٢١٠م وأول من اكتشف التخدير : ابن سينا ــ المولود سنة ٩٨٠ م ، وأول من اكتشف خيوط الجراحة من أمعاء الحيوان : الرازي ــ المولود سنة ٨٥٠ م وأول من اخترع النظارة لضعاف البصر : ابن الهيثم ــ المولود سنة ٩٦٥م[2] .

وبلغ من اهتمام المسلمين بالطب أنهم قاموا ببناء المستشفيات والمعاهد الطبية وبعض المؤرخين يعدون الخيمة التي أمر الرسول الأعظم ﷺ بنصبها في غزوة الخندق هو نواة المستشفيات في الإسلام ، فقد كانت رفيدة الأسلمية تداوى جرحى المسلمين فيها[3] . ويكاد يكون سائر المعارف الطبية في أوربا خلال عصر النهضة مأخوذاً عن العرب وأهم ما حققه العرب في ميدان الطب يتعلق بالجراحة ووصف الأمراض وبالأدوية والصيدلة ، وقد ابتكروا وسائل علاجية متعددة ظهر بعضها في العالم الطبي حديثاً بعد أن مضت عليها قرون من النسيان مثل ذلك : استخدام الماء البارد للحمى التايفوئيدية والطب مدين لهم بكثير المواد الطبية .

مثل السني المكي والرواند والتمر هندي والكافور والكحول وغير ذلك،

---

(١) من روائع حضارتنا ، د . مصطفى السباعي : ٥٣ .

(٢) العلوم الإسلامية ، د . أحمد شوقي الفنجري : ٣ /٦٦ .

(٣) المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، د . إبراهيم سلمان الكروي : ٢٩٧ .

وإننا مدينون لهم بكثير من المستحضرات المستعملة اليوم مثل الأشربة وصنوف اللعوق والمراهم والأدهان والماء المقطر وغير ذلك ، كذلك الجراحة كان للعرب الفضل الأول في تقدمها فقد كانت مؤلفاتهم الطبية كالجراحة لأبي القاسم[1] والقادون لابن سينا وهما اللذان بقيا إلى القرن السابع عشر الكتابين الأساسيين في علم الطب في كل مكان في أوربا[2] .

لقد كانوا في القرن الحادي عشر الميلادي يعرفون علاج الماء الذي ينسب من العين (الكاتاركتا) بالتحويل أو استخدام البلوية ويعرفون كيفية تفتيت الحصاة وعلاج النزيف بصب الماء البارد كما كانت لهم خبرة باستخدام الكاويات والأحزمة والكي بالنار لتطهير الجراح وأن التخدير الذي يظن الناس أنه اكتشاف حديث يبدو أن العرب لم يجهلوه ، فقد كانوا يوصون باستعمال نبات (الزوان) قبل العمليات المؤلمة لتنويم المريض حتى يفقد الوعي والحساسية وكانت لهم أيضاً ثقة عظمى بالوسائل العلمية لعلاج الأمراض وكانوا يعتمدون كثيراً على القوى الطبيعية والطب النظري الذي يبدو اليوم وكأنه الكلمة الأخيرة للعلم الحديث يوافق هذه الفكرة في استدلالاته[3] .

أما الأدوية الصيدلانية التي تعتمد على الأعشاب والنباتات فقد اشتهر

---

(١) أبو القاسم : هو خلف بن عباس الزهراوي الأندلسي ٤٠٣ ــ ٥١٦ هـ ، طبيب من العلماء ، ولد في مدينة الزهراء قرب قرطجة وإليها نسبته (أثر الثقافة الإسلامية : ١٥٥) .

(٢) أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية : ١٥٥ ــ ١٥٦ .

(٣) أوربا والإسلام : ١٦٤ ــ ١٦٥ .

فيها ابن البيطار[1] ، إمام النباتيين وعلماء الأعشاب فقد جمع النماذج النباتية من العالم الإسلامي بأسره وقارن بين نباتات الهند ونباتات إيران ونباتات يونان ونباتات إسبانيا ففي تصنيفه الذي يشرح (١٤٠٠) نبات ، قال المؤرخ الألماني : (ماير) في المجلد الثاني من تاريخه للنبات ، قال عن ابن البيطار : أنه تذكار لكده ومثابرته واشتهر كتابه (الأدوية المفردة) المطبوع في مجلدين المعروف بمفردات ابن البيطار شهر عظيمة في أوربا وله المغن في الطب مرتب على مداواة الأعضاء وميزان الطبيب وهما مخطوطان[2] .

وفي مجال الفن المعماري الإسلامي نجد طابعه المبتكر في الزخرفة الخطية التي استخدم لتمجيد كلام الله في المباني التي خلفوها منثورة في جميع أنحاء العالم ولا شيء يستلفت النظر مثلما تستلفته وحدة الأسلوب المعماري التي تميز هذه الآثار عن غيرها من آثار العالم ، وهذه المباني المتشابهة تجدها قائمة في الهند وتركستان وباكستان وفارس وتركيا وشمال أفريقيا وإسبانيا أي في بلاد يختلف بعضها عن بعض تمام الاختلاف ولها حضارتها ذات الطابع الخاص المتميز الذي لم تستطع حضارتا أثينا أو روما

---

(١) ابن البيطار : هو ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقي المعروف بابن البيطار ولد في مالقه وتعلم الطب ورحل إلى بلاد الأفارقة وأفضى إلى بلاد الروم باحثاً عن الأعشاب والعارفين بها حتى كان الحجة في معرفة أنواعها واتصل بالكامل الأيوبي محمد بن أبي بكر ــ رئيس العشابين في الديار المصرية ولما توفى كامل استبقاه ابنه الملك الصالح أيوب وحظي عنده واشتهر شهرة عظيمة (أثر الثقافة الإسلامية ، هامش : ١٢٩) .

(٢) انظر الثقافة الإسلامية : ١٢٩ .

أن تؤثر فيه بشكل جدي .

وقد سمي (فن الزخرفة الخطية العربية) بعد أن اصبح صادقاً لمثل الأمة العربية إلى أن يخضع لاتجاهاته التي يغلب عليها الطابع الديني كل ما من شأنه أن يعين على استكماله ووضعه في الإطار المناسب ، فن العمارة والنظم الزخرفية الأخرى التي ترسم أساليبه وأشكاله .

وقد دبت فيه بين أيدي العرب حياة جديدة حقاً وقد أطلق على هذا الفن الزخرفي منذ ذلك الحين اسم له دلالته (أرابسك) .

والذي يهمنا أن أوربا تأثرت بالفنون العربية ويكفينا في الدلالة على مدى هذا التأثر ما أشار إليه المؤرخ (دولور) الذي يقول : أن مهندسي العرب قد عملوا في بناء كنيسة نوتردام بباريس[1] .

خامساً : أثر الحضارة القرآنية في مجال الفلسفة :

أما الفلسفة فلم يعرف الغرب فلسفة اليونان إلا عن طريق مؤلفاتنا وترجماتنا ، ومن هنا يعترف كثير من الغربيين المنصفين بأن المسلمين كادوا في القرون الوسطى أساتذة أوربا ستمائة سنة ، فهذه الإمام الغزالي الفيلسوف الإسلامي سبق ديكارت الفيلسوف الفرنسي بأكثر من خمسة قرون اتخذ الشك وسيلة للوصول إلى اليقين فشك في وجود نفسه حتى آمن به اعتماداً على أنه يفكر فهو موجود ، ولقد كان فضل الغزالي على ديكارت في أنه عرف بشيء من خارج العالم الذي شك فيه .

أما ديكارت فعرف ببعض ما شك فيه فقد جعل سبيله إلى المعرفة سبيلاً

---

(١) انظر أوربا والإسلام : ١٥٧ ــ ١٦٠ .

إيجابياً ينبعث من نفسه[1] .

أن التأثير العظيم الذي تركه الغزالي في التفكير الإسلامي يرجع في الدرجة الأولى إلى أنه كان المفكر الأول والوحيد الذي لم يكتف مثل علماء الكلام باقتباس عدة مباحث متفرقة للفلاسفة ومحاولة نقض بعض آرائهم ، بل قام يسعى لتهديم كل البناء الذي أنشأه الفلاسفة المسلمون على أساس الفلسفة ــ اليونانية فشرح لهذه الغاية جميع نظرياتهم في الوجهة العامة وحاول إظهار ضعف براهينها وفساد نتائجها مستنداً في كل ذلك على نظرية خاصة له في المعرفة تدل على دقة المشاهدة وعمق النظر وقوة التفكير[2] .

قال العلامة غوستاف لوبون : (ظلت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية المصدر الوحيد تقريباً للتدريس في جامعات أوربا خمسة قرون أو ستة قرون ويمكننا أن نقول أن تأثير العرب في بعض العلوم كعلم الطب مثلاً دام إلى أيامنا ، فقد شرحت كتب ابن سينا في (مونبليه) في أواخر القرن الماضي[3] .

سادساً : أثر الحضارة القرآنية في مجال الفيزياء .

وفي مجال الفيزياء تقدم هذا العلم وترجمت مؤلفات اليونان إلى اللغة العربية فقد استوعب علماء المسلمين هذه الكتب فأخذوا يبحثون هم أنفسهم بهذه العلوم واكتشفوا قوانين طبيعية وألفوا الكتب القيمة في مختلف فروع علم

---

(١) انظر عبقرية العرب ، لعمر فروخ : ١١٠ نقلاً عن مجلة التمدن الإسلامي ١١ ــ ١٢ مجلد : ١٥ .

(٢) انظر مقدمة المنقذ من الضلال ، وانظر مجلة التمدن الإسلامي مجلد ، ١٥ الجزءان ١١ ــ ١٢ : ٢٤٢ .

(٣) من روائع حضارتنا ، د . مصطفى السباعي : ٥٤ .

الفيزياء وصنعوا الآلات الكثيرة ، ومن أهم العلوم الطبيعية التي اعتنى بها المسلمون الميكانيكا ومراكز الأثقال والسوائل والوزن النوعي والضغط الجوي والجاذبية والضوء والصوت واشتهر العلماء المسلمون في مجال الفيزياء كابن الهيثم والبيروني[1] .

فابن الهيثم كان عالماً في نواميس النور وله مؤلفات عديدة منها (كتاب المناظر) وجوهر البصر والمرايا المحرقة الدوائر والمرايا المحرفة القطوع واختلاف النظر وأضواء الكواكب وضوء القمر وهو أول من وضع للعين تشريحاً مدققاً فيه قال : (مايرهون) في كتابه تراث الإسلام عنه : (أنه أول من وضع أساس التصوير الشمسي بالطريقة التي استخدمها لعكس صورة الشمس على جدار)[2] .

نقلت مباحث ابن الهيثم إلى اللاتينية وعليها بنى العالم الألماني (فيتلو) تجاربه وأحكامه وأعظم أقسام كتابه حجماً وأهمية مأخوذ من كتاب المناظر لابن الهيثم .

وقد ظهر أثر ابن الهيثم أيضاً في مباحث روجر باكون الإنكليزي وفي مباحث ((ليونارد فينيشي) ثم في نظريات بوهان كيلر ومن تبعه .

وأما البيروني محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي فهو فيلسوف رياضي قضى أربعين سنة في أسفار غرضها جمع نماذج معدنية وجداوله في الأوزان النوعية التي حصل عليها بالوزن المقارن وجدت

---

(١) المرجع في الحضارة العربية الإسلامية : ٥٠٣ ــ ٣١٠ .

(٢) الأمالي ، المجلد الأول : ٣ /٦٩ ، من بحث للأستاذ أنيس المقدسي نقلاً عن مجلة التمدن الإسلامي المجلد ، ١٥ ، الجزءان ١١ ــ ١٢ سنة ١٩٤٩ .

صحيحة[1] .

هكذا تجلس أثر الحضارة القرآنية على الحضارة الحديثة ، وكان الفضل الأكبر في نقلها يعود إلى عباقرة المسلمين .

كما تجلى لنا أيضاً مقدرة العقل الإنساني المتنور بالقرآن على الابتكار والإبداع .

لذلك أرجو أن تكون هذه الدراسة حافزاً يدفع نفوس علماء المسلمين في الوقت الحاضر إلى وعي حضارة القرآن وقيمه كما يدفعهم إلى تمكين الإسلام في الأرض وتحقيق ما نصبو إليه من نصر مؤزر في شتى ميادين العلوم ومجد مؤثل بالإسلام والمسلمين ورفعة لحضارة القرآن كما كانت بالأمس فتخفق أعلامها من جديد على عالم مروع بالظلم ومغرم بالحروب ومتعطش لسفك الدماء .

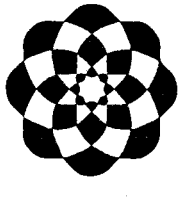

(١) انظر مجلة التمدن الإسلامي ، مجلد ، ١٥ ، ١١ ــ ١٢ : ٢٤٩ ــ ٢٥٠ .

الخاتمة ونتائج البحث

الحمد لله في البدء وفي الختام ، الذي من عليّ بإكمال هذا البحث إذا كان محاولة لإظهار مكانة العلم ومنزلة العلماء من خلال آيات القرآن الكريم وبعد :

فهذه خاتمة البحث ونتائجه التي يدرج فيها عادة أهم ما توصل إليه الباحث من نتائج أو يسجل فيها ما يراه من اقتراحات وتوصيات في مجال التخصصي والتي تشحذ عزائم المخلصين وتدفعهم إلى مواصلة البحث والدروس من أجل مواكبة التقدم والتطور الذي يشهده عالمنا المعاصر ولا سيما في مجال هذه الدراسة بما تحمله من هذا العنوان الضخم الذي ارتد نابه آفاقاً فسيحة من العلم القرآني الواسع الذي تشعبت دوريه وتعددت اتجاهاته ، وقد مهدت الطريق أمام من تدفعهم الرغبة العميقة في خوض أغمار هذه الأنماط من العلم القرآني لما تؤديه من خدمات لحياة البشر في عالمنا المعاصر .

ويغلب على الظن أن كل إنسان لو تأمل قليلاً ودقق النظر في ألفاظ العلم التي وردت في القرآن الكريم لأدرك أن هذه الألفاظ تطلق على شتى العلوم الدينية والعربية والكونية والطبيعية والنفسية والصحية وغير ذلك مما تنطوي عليه كلمة العلم القرآني .

وبعد هذا فلا بد من الوقوف على بعض النتائج التي استخلصتها من البحث المتواضع أذكرها على وجه الإجمال :

أثبت البحث أن كلمة العلم لم ترد في القرآن الكريم مصطلحاً على العلوم الدينية فحسب وإنما تشمل العلوم الدينية والدنيوية . لأن الدين الصحيح لا يكون منفصلاً عن العلم بنوعية ، بل يكون العلم فيه بمنزلة الروح للجسد ، وأنه القوة الموجهة ، وإن الإسلام بهذه الحقيقة دين من هذا الطراز .

تناول البحث أنواع العلوم القرآنية وأكد أنواع مجالاتها التي تتصل في كل ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم وفي معادهم ومعاشهم وفي أجسامهم وأرواحهم إذ أن القرآن الكريم يشمل كثيراً من أمور العالم الكونية والاجتماعية وكثيراً من المسائل العلمية والتاريخية .

أكد البحث أن العلم وسيلة من أهم وسائل العبادة لله تعالى إذ به يعبد الإنسان ربه قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[1]

ولكما ازداد علم الإنسان بهرته عظمة الله ، ولذلك كان الرسول ﷺ أشد الناس إيماناً لأنه كان أكثرهم علماً فقد كان يقول : ((إني أتقاكم وأعلمكم بالله أنا)) [2] .

ويقول ﷺ أيضاً : ((لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً)) [1] .

---

(١) سورة فاطر : الآية ٢٨ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة الجامع الصغير للسيوطي : ١ /٢٩١ ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد .

أثبت البحث الإعجاز العلمي للقرآن الكريم من خلال استقراء الآيات التي توجه النظر إلى مظاهر الكون والطبيعة والنفس مما يجعلنا نوقن كل الإيقان بأن الإعجاز القرآني ليس مقصوراً على فصاحة ألفاظه وبلاغة أسلوبه .

بين البحث اهتمام القرآن بالعقل لأنه المعول عليه في الوصول إلى العلم الذي يكشف نواميس الكون وسنن الوجود ، وهو الذي يرشد الإنسان إلى كيفية تسخير العلم لمصلحته عن طريقه كما يرشده إلى إدراك أسس العبادة وأصول الفضائل والأخلاق والتحلي بها والكف عن السيئات .

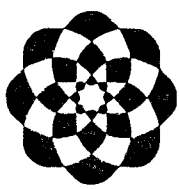

(١) أخرجه الشيخان عن أنس ، انظر الجامع الصغير : ٢ /١٣٠ .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

المصادر

١. القرآن الكريم

٢. أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية . روبرت بريفالت . ترجمة السيدة أبو النصر أحمد الحسيني . ط١ . مطبعة عيسى البابي الحلبي . القاهرة .

٣. أحكام القرآن . أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي . طبعة جديدة بتحقيق على محمد البجاوي . مطبعة دار الكتب . مصر . سنة ١٩٥٩.

٤. إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالي . ط١ . دار الفكر . ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥ .

٥. الإحكام في أصول الأحكام . سيف الدين أبي الحسن على الآمدي . مطبعة المعارف . مصر .

٦. الأربعين في أصول الدين . للإمام أبي حامد الغزالي . مطبعة الاستقامة . القاهرة . ١٣٤٤ هـ .

٧. الإسلام في عصر العلم . د . محمد أحمد الغمراوي . مطبعة السعادة . القاهرة . ١٩٧٣ .

٨. الإسلام نظام إنساني . مصطفى صادق الرافعي . ط٣ . دار مكتبة الحياة . بيروت .

٩. الإسلام وحاجة الإنسانية إليه . الدكتور محمد يوسف موسى . ط١ . الشركة العربية للطباعة والنشر . القاهرة . ١٩٥٩ م .

١٠. الأصنام . أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي . تحقيق : أحمد زكي . المطبعة الأميرية . القاهرة . ١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤ م

١١. الإعجاز القرآني . بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني المنعقد في بغداد سنة ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م .

١٢. الأغاني . لأبي فرج الأصفهاني . مطابع ستاتسوماس وشركاءه . مصر ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م .

١٣. أوربا والإسلام . دكتور عبد الحليم محمود . مطبعة الأهرام التجارية . ١٩٧٣ .

١٤. أيام العرب في الجاهلية . محمد أحمد جاد المولى بك ، وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم . دار إحياء التراث العربي . بيروت . ١٩٦١ .

١٥. البحر المحيط . محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي . ط٢ . مطبعة دار الفكر . بيروت . ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م .

١٦. البداية والنهاية . للحافظ ابن كثير . ط٥ . دار الكتب العلمية . بيروت . ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م .

١٧. البناء الحضاري في القرآن الكريم . عبد السلام داود . رسالة ماجستير . كلية العلوم الإسلامية . ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م .

١٨. التاج الجامع للأصول . الشيخ منصور علي ناصف . مصر . ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م .

١٩. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي . دكتور حسن إبراهيم حسن . ط٧ . مطبعة السنة المحمدية . القاهرة . ١٩٦٤ م .

٢٠. تاريخ الخلفاء . جلال الدين عبد الرحمن السيوطي . تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد . ط٣ . مطبعة منير . بغداد . ١٩٨٧ م .

٢١. تاريخ العرب . دكتور فليب حتى ود ، وإدوارد جرجي ود ، جبرائيل جبور . ط٢ . دار الكشاف للنشر . ١٩٥٢ م .

٢٢. تاريخ بغداد . أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي . ط١ . مطبعة دار الكتب المصرية . ١٣٤٩ هـ ـ ١٩٣١ م .

٢٣. التحرير والتنوير . محمد الظاهر بن عاشور . طبع الدار التونسية للنشر . ١٩٨٤ .

٢٤. تذكرة الحفاظ . شمس الدين الذهبي . ط٣ . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية . ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م .

٢٥. ترتيب المدارك وتقرير المسالك . القاضي عياض . دار مكتبة الحياة . لبنان . ١٩٦٨ .

٢٦. الترغيب والترهيب . الإمام الحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري . ط٢ . مطبعة عيسى البابي الحلبي . مصر . ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م .

٢٧. تعريفات السيد الجرجاني . المطبعة الوهبية . مصر . ١٢٨٣ هـ .

٢٨. تفسير أبي السعود . أبي السعود محمد بن محمد لعمادي . ط١ . ١٩٢٨ ، المطبعة المصرية .

٢٩. تفسير القرآن العظيم . إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي . دار المعرفة . بيروت . ١٩٦٩ م .

٣٠. التفسير الكبير للرازي . ط١ . المطبعة الخيرية . مصر . ١٣٨٠ هـ .

٣١. التفكير فريضة إسلامية . عباس محمود العقاد . مطبعة دار الهلال . القاهرة .

٣٢. تلبيس إبليس . جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي . مطبعة منير . بغداد . ١٩٨٣ م .

٣٣. تنبيه العقول الإنسانية لما في القرآن من العلوم الكونية والعمرانية . الشيخ محمد بخيت المطيعي . طبعة جديدة . مطبعة الشرق . مصر .

٣٤. تنظيم الإسلام للمجتمع . محمد أبو زهرة . دار الفكر العربي . القاهرة . ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م .

٣٥. تهذيب ابن عساكر . هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران . مطبعة دار المسيرة . بيروت . ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

٣٦. جامع الأحاديث ، ويشتمل على جمع الجوامع للإمام السيوطي ، والجامع الأزهر وكنوز الحقائق للمناوى ، والفتح الكبير للنبهاني ، دار المعارف ، مصر ، بلا تاريخ .

٣٧. الجامع لأحكام القرآن . أبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي . ط٢ . دار الكتب المصرية . ١٩٥٢ م .

٣٨. جامع البيان عن تأويل القرآن . أبو جعفر محمد بن جرير الطبري . حققه : محمود محمد شاكر وراجعه أحمد محمد شاكر . دار المعارف . مصر .

٣٩. الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير . جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م .

٤٠. الحاوي للفتاوى . للسيوطي . المطبعة الميمنية . مصر . ١٣٥٢ هـ .

٤١. حجة الله على العالمين . يوسف النبهاني . المطبعة الأدبية . بيروت . ١٣١٦ هـ .

٤٢. الحضارة الإسلامية . خودا بخش . ترجمة علي حسني الخربوطلي . ط١ . دار إحياء الكتب العربية . ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م .

٤٣. حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي . جلال مظهر . دار مصر للطباعة . ١٩٧٤ .

٤٤. حضارة العرب . خوستاف لوبون . نقله إلى العربية : عادل زعيتر . ط٤ . مطبعة عيسى البابي الحلبي . ١٣٨٤ ـ ١٩٦٤ .

٤٥. حقائق عن التصوف . عبد القادر عيسى . ط٤ . المطبعة الوطنية الأردن . ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م .

٤٦. دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية . سعيد عبد الفتاح عاشور . ط٢ . ذات السلاسل . الكويت . ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ .

٤٧. الدعوة إلى الإسلام . سير توماس وآرنولد . ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون . ط٢ . مطبعة لجنة البيان العربي . القاهرة . ١٩٥٧ م .

٤٨. الدلائل النورانية لطالب الربانية . عدنان صالح الرومي ، وعلي صالح الهزاع . مكتبة المنار الإسلامية . الكويت .

٤٩. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين . محمد بن علان الصديقي . مطبعة حجازي بالقاهرة .

٥٠. الرازي مفسراً . الدكتور محسن عبد الحميد . ط١ . مطبعة دار الحرية . بغداد سنة ١٩٧٤ م .

٥١. الرسالة القشيرية . أبي القاسم عبد الكريم ابن هوازن القشيري . ط٢ . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده . مصر . ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٥٩ .

٥٢. روح الدين الإسلامي . عفيف عبد الفتاح طبارة . ط١٠ . مطبعة دار العلم للملايين . لبنان . ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م .

٥٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني . أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي . ط١ . المطبعة الكبرى الميرية ببولاق . مصر . ١٣٠١ هـ .

٥٤. الرياض النضرة في مناقب العشرة . للمحب الطبري . مطبعة دار التأليف . القاهرة . ١٣٧٢ هـ .

٥٥. سنن ابن ماجه . الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني . دار إحياء التراث العربي . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي . ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م

٥٦. سنن أبي داود . سليمان بن الأشعث ابن إسحاق الأزدي السجستاني . ط١ . مطبعة مصطفى البابي الحلبي . مصر . ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م .

٥٧. سنن الدارمي . أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد التميمي السمرقندي . دار الفكر . القاهرة . ١٣٩٨ ـ ١٩٧٨ .

٥٨. السيرة النبوية لابن هشام . مصطفى البابي الحلبي . مصر . ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م .

٥٩. شذرات الذهب في أخبار من ذهب . ابن العماد الحنبلي . المكتب التجاري . بيروت .

٦٠. شرح التفتازاني على النسفية . سعد الدين مسعود . طبعة عثمانية . ١٣٢٦ هـ .

٦١. شرح النسفية . الدكتور عبد الملك السعدي . ط١ . مطبعة الخلود . ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

٦٢. الشفا بتعريف حقوق المصطفى . للقاضي عياض اليحصبي . مطبعة الاستقامة . القاهرة .

٦٣. صحيح البخاري . أبي عبد الله محمد بن إسماعيل ابن إبراهيم ابن المغيرة البخاري الجعفي . مطابع الشعب . مصر ١٣٧٨ هـ

٦٤. صَحِيْح ابْن حِبَّانَ بترتيب ابن بلبان ، لأبي حاتم مُحَمَّد بن حِبَّانَ ابن أَحْمَد التميمي البستي ، (ت ٣٥٤هـ) ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرِسَالَة ، الطَبْعَة الثانية ، بَيْرُوْت ، ١٤١٤ هـ ــ ١٩٩٣م .

٦٥. صحيح مسلم . مسلم بن الحجاج . مطبعة دار الطباعة العامرة . ١٣٢٩ هـ .

٦٦. الطبقات الكبرى . لابن سعد . دار صادر . بيروت . ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٨ م .

٦٧. الطب محراب للإيمان . الدكتور خالص جلبي . ط١ . دار الكتب العربية دمشق . ١٣٩٤ هـ ــ ١٩٧٤ م .

٦٨. العلوم الإسلامية . الدكتور أحمد شوقي الفنجري . ط١ . مؤسسة الكويت للتقدم العلمي . ١٩٨٥ م .

٦٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري . أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني . ط٢ . المطبعة البهية المصرية . ١٤٠٢ هـ .

٧٠. فجر الإسلام . أحمد أمين . طبعة دار الكتاب العربي . ط١٠ . بيروت . ١٩٦٩ م .

٧١. فقه السيرة . محمد سعيد رمضان البوطي . ط٧ . دار الفكر . بيروت . ١٣٩٨ ــ ١٩٧٨ م .

٧٢. الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر . الأستاذ الدكتور محمد البهي . ط٢ . دار الكتاب اللبناني . بيروت . ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م .

٧٣. الفكر القرآني . بحث للدكتور محسن عبد الحميد . ملزمة مطبوعة لقسم الفلسفة في كلية الآداب .

٧٤. في ظلال القرآن . سيد قطب . ط٣ . دار إحياء التراث العربي . بيروت . ١٩٦١ م .

٧٥. فيض القدير شرح الجامع الصغير . للمناوي . مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة . ١٣٥٦ هـ .

٧٦. القاموس المحيط . مجد الدين الفيروز آبادي . مطبعة السعادة . مصر .

٧٧. القرآن والمجتمع الحديث . عبد الرزاق نوفل . دار الجيل للطباعة لم يذكر سنة الطبع .

٧٨. القرآن والعلم الحديث . عبد الرزاق نوفل . ط١ . دار المعارف . مصر . ١٩٥٩ م .

٧٩. القرآن والعلم . أحمد محمد سليمان . مطبعة دار العودة . بيروت .

٨٠. قصة الإيمان . للشيخ نديم الجسر . مطبعة منير . بغداد .

٨١. القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي . الطباعة الفنية المتحدة .

٨٢. قواعد التصوف . أحمد زروق الفاسي مطبعة مصر ١٣١٨ هـ

٨٣. الكامل في التاريخ . أبي الحسن بن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد المعروف بابن الأثير . إدارة الطباعة المنيرية . مصر . ١٣٤٨ هـ .

٨٤. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . جار الله محمود بن عمر الزمخشري . دار المعرفة . بيروت .

٨٥. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس . إسماعيل العجلوني مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥١ هـ

٨٦. اللامذهبية . الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي . ط٢ . مكتبة الفارابي . ١٣٩٠ ـ ١٩٧٠ م .

٨٧. لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب . أحمد موسى سالم . دار الجيل . بيروت . ١٩٧٧ م .

٨٨. لماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي . ط١٠ . مطبعة التقدم . ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٧ م

٨٩. مبادئ الإسلام . أبي الأعلى المودودي . تعريب محمد عاصم الحداد . دار العروبة . ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م .

٩٠. مجمع الزوائد . الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي . ط٢ . دار الكتاب العربي . بيروت . ١٩٦٧ م .

٩١. محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية . محمد الخضري . ط٧ . مطبعة الاستقامة . القاهرة . ١٩٦٤ .

٩٢. محاضرات في تاريخ العرب . الدكتور صالح أحمد العلي . ط٤ . مطبعة الإرشاد . بغداد . ١٩٦٨ م .

٩٣. المرأة في القرآن والسنة . محمد عزة دروزة . المكتبة العصرية للطباعة . بيروت . ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م .

٩٤. المرجع في الحضارة العربية الإسلامية . الدكتور إبراهيم سلمان الكروي ، و د . عبد التواب شرف الدين . ط٢ . مطبعة ذات السلاسل . الكويت . ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

٩٥. مروج الذهب ومعادن الجوهر . أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي . تحقيق : محي الدين عبد الحميد . ط٢ . مطبعة السعادة . مصر . ١٣٦٧ هـ .

٩٦. مدى حرية الزوجين في الطلاق . الدكتور عبد الرحمن الصابوني . ط٢ . مطبعة دار الفكر . بيروت . ١٩٦٨ م .

٩٧. مدخل الفقه الإسلامي . الدكتور محمد سلام مدكور . الدار القومية للطباعة . ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م .

٩٨. مدخل إلى موقف القرآن الكريم . الدكتور عماد الدين خليل . مطبعة الزهراء الحديثة . الموصل . ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

٩٩. الْمُسْتَدْرَك عَلَى الصَّحِيحَيْنِ ، لأبي عَبْد اللَّه الحافظ مُحَمَّد بن عَبْد اللَّه الحاكم النَّيْسَابوري ، (ت ٤٠٥هـ) ، تحقيق : مصطفى عَبْد القادر عطا ، دَار الكتب العلمية ، الطَبْعَة الأُولَى ، بَيْرُوْت ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م .

١٠٠.مستقبل الحضارة . يوسف كمال . ط٢ . دار الوفاء . القاهرة . ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧ م .

١٠١.المستصفى . أبي حامد محمد بن محمد الغزالي . ط١ . المطبعة الأميرية ببولاق . مصر . ١٣٢٤ هـ .

١٠٢.المسلمون والعلم الحديث . عبد الرزاق نوفل . ط٣ . مطبعة دار الكتاب العربي . بيروت . ١٩٧٣ م .

١٠٣. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي . لفيف من المستشرقين . مكتبة بريل في مدينة ليدن . ١٩٣٦ م .

١٠٤. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقي . مطبعة دار الكتب المصرية . ١٩٤٥ م .

١٠٥. مطابقة علم الأجنة لما جاء في القرآن والسنة . الدكتور ناطق محمد النعيمي .

١٠٦. معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي . الدكتور عبد الله مصطفى . ط١ . عمان . ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م .

١٠٧. معراج التشوف إلى حقائق التصوف . مطبعة الاعتدال . ١٣٥٥ هـ .

١٠٨. مفتاح دار السعادة ومصباح السيادة . أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده . مطبعة الاستقلال الكبرى . القاهرة .

١٠٩. مفتاح دار السعادة . ابن قيم الجوزية . مكتبة الرياض الحديثة بالرياض.

١١٠. مقدمة ابن خلدون . العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلـدون . ط٢ . لجنة البيان العربي . ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م .

١١١. مكانة العلم ومنهاجه ومجالاته في القرآن . السيد علي السيد محاضرات ألقيت في قاعة المحاضرات الأزهرية . مطبعة الأزهر . ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٩ م .

١١٢. مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول . أحمد إبراهيم الشريف . ط٢ . مطبعة مخيمر . القاهرة . ١٩٦٥ م .

١١٣. مناهج تجديد . أمين الخولي . ط١ . مطبعة دار المعرفـة . القـاهرة . ١٩٦١ م .

١١٤. المنتخب في تفسير القرآن الكريم . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . لجنة القرآن والسنة . ط٣ . مطابع الأهرام التجارية . مصر ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م .

١١٥. من روائع حضارتنا . الدكتور مـصطفى الـسباعي . ط٣ . المكتـب الإسلامي . ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .

١١٦. المنقذ من الضلال . الإمام الغزالي . مطبعة صـبيح وأولاده بمـصر . ١٣٧١ هـ .

١١٧. منهج القرآن في تربية المجتمع . الدكتور عبد الفتـاح عاشـور . ط١ . مكتبة الخانجي . مصر . ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

١١٨. منهج القرآن في تطوير المجتمع . رسالة دكتوراه . محمد صالح عطية الحمداني . كلية العلوم الإسلامية . ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م .

١١٩. الموافقات في أصول الشريعة . أبي إسحاق الشاطبي . مطبعة المكتبة التجارية . مصر .

١٢٠. نماذج من الإعجاز العلمي للقرآن . أحمد عبد السلام الكرواني . مطابع دار الشعب . القاهرة . ١٩٧٨ م .

١٢١. نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار . محمد بن علي بن محمد الشوكاني . ط٢ . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م .

البحوث

١. القرآن والإعجاز العلمي . الدكتور عبد الستار حامد . بحث منشور ضمن بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني المعقود في بغداد سنة ١٩٩٠ م .

٢. منهج التفسير العلمي . ملزمة مطبوعة لقسم الدراسات العليا في كلية العلوم الإسلامية للدكتور عبد الستار حامد .

٣. نظرات في وجوه الإعجاز القرآني . الدكتور عبد الستار حامد . بحث غير منشور .

المجلات

١. مجلة آفاق عربية . بغداد . العدد الأول . سنة ١٩٧٧ .

٢. مجلة التمدن الإسلامي . سنة ١٩٤٩ . المجلد ١٥ .

٣. مجلة عالم الفكر (القرآن والسيرة النبوية) المجلد ١٢ . سنة ١٩٨٢ الصادرة في الكويت .

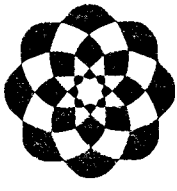

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٥
الفصل الاول: مفهوم العلم ومجالاته في القرآن الكريم	١٣
المبحث الاول: مفهوم العلم في القرآن الكريم	١٥
موقف القرآن الكريم من العلم	٢٣
فضيلة العلم ومكانته والشواهد على فضيلته	٢٨
المبحث الثاني: مجالات العلم في القرآن الكريم	٣٧
أوجه اهتمام القرآن الكريم بالعقل	٣٩
العلم الاسقرائي	٤٣
العلم الرباني / الالهام	٦٩
العلم اللدني	٧٨
الفراسة	٨١
الفصل الثاني: منهج الوصول إلى الحقائق العلمية في القرآن الكريم	٨٩
تمهيد	٩١
المبحث الاول: طريقة القرآن في الوصول الى الحقائق العلمية	٩٤
المبحث الثاني: طريقة العلم في الوصول على الحقائق العلمية	١٠١
خاتمة أوجه التشابه بين طريقة القرآن الكريم وطريقة العلم	١٠٥
الفصل الثالث: العلماء في القرآن الكريم	١٠٧

المبحث الاول: فضيلة التعلم ووجوب طلب العلم	١٠٩
المبحث الثاني: صفات العلماء	١١٧
المبحث الثالث: وجوب الاسترشاد بالعلماء	١٣٥
الفصل الرابع: منهج القرآن العلمي وأثره في الحضارة	١٤٣
تمهيد	١٤٥
المبحث الاول: خصائص الحضارة الإسلامية	١٥١
المبحث الثاني: واقع الحضارة الإسلامية	١٦٢
المبحث الثالث: اثر الحضارة القرآنية في الحضارة الحديثة	١٧٣
الخاتمة ونتائج البحث	١٩٧
المصادر والمراجع	٢٠٣